رفوف من سيرة حائر

محمد حلفاوي

قصص

دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

رفوف من سيرة حائر

رفوف من سيرة حائر

قصص

حلفاوي محمد

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

العنوان: رفوف من سيرة حائر

النوع الأدبي: قصص

المؤلف: حلفاوي محمد

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

مقدمة:

عيش داج بخبب الليالي ، يتبلج صبحه مسودا ،ويسود ، على شاكلة تلك الليالي، يمارس عليها الغموض والتيه، يرافق دبيبنا فينزع عنه كرامته وكبريائه ، وفي هذا كله ستمر عليك قصص وروايات ، وسيطلب منك أن تغني تلك المرويات، بضمير لا يعرف عن الغناء قيد أنملة، إذا كان مصقولا كالحسام ستكتب، وإن لم يكن كذلك سترويها للأحفاد..... لو طلب منك للمرة الثانية أن تختار، سوف لن تختار العيش في هذا الزمن لأن أبطاله من ورق، يعشقون الورق، وغيبوا كل فضيلة لأجل الورق إنهم أهل الماديات ،وهل تدري كيف أنت الأن؟

أنت حائر....

'حائر' هو الإحساس الفعلي، الذي تخبأه النفس البشرية ،في أعماقها يمس العقل والقلب، لينتفض ويثور من بعيد ضد كل ما هو سيء وردي ، نتيجة التصرفات اللامعقولة

للذات الإنسانية.

'حائر' هو تعبير أدق لنفسية كاتب جمع شذرات قصص ، أنهك مغزاها كاهل المجتمعات، وتقدم ما نعرفه ،وسنعرفه ،في مرحلنا الحياتية المختلفة بعسرها ويسرها ، وضيقها وفرحها، فالدنيا أكبر قصة، بل هي مسرح الأحداث وتطوراتها، وفي طياتها يبقى غيث القصص منهمرا .

يا سيدي القارئ ،لقد أدليت بدلوي في بحر جنس القصة فقير إلى الكلمات ، متسول إلى المعاني وقد كنت أحب أن أخوض غمارها ، بلغة فصيحة نقية بعيدة عن الإستبذال، جمعتها بأسلوبي الذي ما أظنه موصلي، هادفة مرة ، وتطرق أبواب

الحكمة مرة أخرى، لا أدعي مجاراتي لكتاب القصة القصيرة، فلطالما حاولت تقويم قلمي، فليأخذني

القارئ عن كل غلو كان ،أو لحن سواء في البناء أو في النحو ، ولكل جواد كبوة، ولله العصمة وحده.

حلفاوي محمد

أبناء عبد المال

يوم جديد ، صباح تشرق به النفوس راجية رضى ربها، نبضة أخرى من نبضات الحياة، تبتسم مع أول نسمة تبعثها رموش العين، وأنفاس الصباح. فأستيقظ وقد سكن البنفسج قلبي الهادئ، الذي ودع دقات جميلة من دقات العمر وداع الكريم للضيف العزيز. يرسل فيها الأمل تباشير الطمأنينة والسلام، لألبي ما ألفته وشبت عليه من صلاة وعبادة، ثم أستقبل بيد مصافحة عملي الذي لا يختلف عن إخوته، في الأيام الماضية.

نبدأه بالاستقبال والتوجيه ، نفتح مكاتبنا لننشغل بشؤون العامة ، فأرسم صورة لهذه الأخيرة كأعشاش العصافير ، حين تطعم الأم أبناءها ، كل يمد يده ، ويشغل فاه بالكلام والعتاب حتى إذا أخذ أوراقه انصرف دون رجعة ، مجتمع يعيش مع القلق وأناس ترافقهم السرعة ليلا ونهارا.

أحببت في مهنتي أصدقائي ، نكمل بعضنا البعض في كل شيء، حتى لا يعلم أمر الغائب منا ، وأمر سارق السويعات، التي نخطفها لقضاء حوائج المنزل، كلنا واحد كبيرنا صغيرنا مديرنا ، رئيس مصلحتنا ، حارسنا...

الكل منهمك انهماكا، بينما يخرج محمود كالبرق من مكتبه... أسكت الجميع وبدد سحب الإنهاك، ليقف رئيس المصلحة في وسط الرواق. فنلتف حوله نستفسر ونستعلم...كم نتلذذ بهذا الاستفسار.

(لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد توفي والده فجأة).

(إسمعوا سنذهب نحن الأربعة لمساعدته، فلان وفلان وفلان، وحين الظهيرة سيذهب البقية).

وقد خصني بالذكر ، وضمني إلى فرقة المساعدة.

كنت أحسب ذهابنا بالسيارات، لكن قيل لي أن المنزل قريب من هنا .ماهي إلا دقائق حتى وصلنا مدخله الجميل المزخرف ، وأمامه بعض المعزين .منزل يخطف الأنظار بني من أول الشارع حتى نهايته ، طول وعلو وفخامة ،وألوان وألواح ومحلات تبيع كل شيء إذ لا يعقل أن يكون منزل موظف ، وخلاصة الأمر أن صاحب هذا الروض ، رجل فاحش الثراء.

همس صديقي في أذني قائلا:

(لا تذهل يا صديقي هذا فعلا منزل المرحوم والد محمود).

هممنا لبناء خيمة ، نستقبل فيها جموع المعزين، بدأناها بإيقاف الأعمدة الحديدية، حتى توقفت أمامنا شاحنة بها أثاث منزلي فاخر، يمتطيها رجل ضخم ، تتبعها سيارة بها ثلاثة شبان يهاب الريح مس صدورهم ، نزلوا بسرعة وبدأوا يدخلون الأثاث، دون أي تحية أو كلام أو سلام.

همس صديقي في أذني للمرة الثانية قائلا:

(هذا ابنه الأكبر ، كان المرحوم قد طرده وأبناءه من السكن ، فلنعزهم)

توجهنا إليهم ، لنقدم العزاء وصديقي محمود منهمك مع الدموع و إستقبال المعزين.

بعد هنيهة ، تتوقف شاحنة أخرى والشيء نفسه.

يهمس صديقي في أذني للمرة الثالثة قائلا:

(هذا ابن أخر، كان المرحوم قد طرده وابناءه من السكن ، فلنعزهم).

قلت في نفسي : (ما هذه الجنازة الغريبة، لما لا ينشغل أبناءه في لقاء المعزين ، ولما لا يبدو عليهم الحزن).

يتقدم صاحب البنية العظيمة ، ويصرخ في وجه محمود.

(أيها الانتهازي أين مفاتيح مرأب السيارات). وإذ بمحمود يفقد أعصابه ، ويضرب أخوه بالعمود الحديدي ، سبحان الله كأنما الكل كان جاهز، العصي الأعمدة الحديدية .حرب بين الأهل يسمع لها قرع عظيم وهول كبير .حاولنا جاهدين فضها ولولا تدخل الجيران ، والمصلحين والمارة ونواح العم الأكبر .

(إكرام الميت دفنه)

(ادفنوا أباكم ، ماذا فعلت يا أخي في دنياك).

وهدأ الوضع وعادت المياه إلى مجاريها ، بعد أن أبعدت أخر شرارة ،وهو ابن الأخ الذي ظل يصيح في وجه محمود (سأقتلك ، سأقتلك)والجماعة تمسكه من يده ورجليه وتدخله السيارة .

- طلبت من رئيس المصلحة العودة إلى عملي ، لأن معطفي تقطع ويدي تِؤلمني ، فقد تلقيت ضربة عنيفة عن طريق الخطأ.

(اصبر دقائق معدودات، سنعود كلنا، لا تندهش هذه الأمور ألفناها، الحمد لله أننا هنا، لولانا لحدثت كارثة أكبر).

جلست على الكرسي أدعك يدي ، وأتحسس إن كان بها كسر، أم مجرد ألم وأدعو الله أن يحفظها لمسك القلم ، أمامي شؤون ناس وعدتهم بقضائها.

فجأة. تتوقف سيارة فاخرة ، تنزل منها إ مرأة تلطم ، وتبكي ، تتجه مسرعة إلى البيت، ثم رجل معه تنانين بشرية ، قيل لي أنها أختهم وزوجها ، وابنها .هنا توقف قلبي وقلت لن ، ولن أنهض من مكاني .

رأيته يتجه نحو الإخوة .

اسمعوا :(المحلات الثلاث الأولى لي، من يتدخل سألحقه بأبيه)

...دفع به إلى الأرض، ينهض مسرعا إلى صندوق سيارته وناول أبناءه تلك العصي المستعملة في لعبة " البيسبول" ، كأن الرجل قد جهز نفسه للشجار مسبقا ، لا للعزاء .وهنا تبدأ المعركة الثانية الأشد ضراوة وشراسة ، رأيت ما هو أغرب ،وأدهى وأمر .

- نساء في النوافذ، تمطرنا بالصحون والأواني، وكل ما وجد في المنزل.

-لصوص تنتهز الفرصة لتسرق أين كانوا ومن أين خرجوا، محلات تقتحم ، ملابس فاخرة تنهب ، أجهزة إلكترونية تركب عل سطوح السيارات.

-رأيت رئيسي في العمل يسقط أرضا ووجهه مخضوب بالدماء ، توجهت إليه لأنقذه ، لكن شيئا أصاب رأسي أسقطني أرضا .أحس بالدم الساخن يعبر عيني ووجنتي ليلامس رقبتي، ملقى على الأرض شبه صريع أتأمل الشرطة تفك النزاع بالعصي ، تغمض مقلتاي لتفتح في المستشفى، والإبرة توخز رأسي لتخيط الجرح .لم أنطق بأي كلمة ، أتأمل يدي فأجدها مغطاة هي الأخرى بالبياض .

يناولونني حقنتين ، تحرر الطبيبة وصفة طبية وشهادة راحة ، رافقتها تمتمة ساخطة على ما يحدث بعدما سألتني عن إسمي وسني .

(حمقى يتقاتلون من أجل المال).

كانت الشرطة كلما خرجت فرقة ، إلا واقتادتها الى قسمها.

أجلس ، أنتظر وأنين المكسورين والمجروحين يؤرقني ، ينادي الشرطي على الأشخاص ،تفقدت أوراقي الثبوتية وكم حمدت الله عندما وجدتها .

تقدمت أمام المحققين ، سألني الضابط إن كنت من الورثة.

قلت: (ياسيدي يقال : عرس تحول إلى مأتم ومأتم تحول الى ماذا؟... إذا لم نعتبر من الموت فمما سنعتبر؟...أنا موظف في إدارة جئت أقدم واجب العزاء فوجدت نفسي كما ترى)

(وهل لك ما يثبت ذلك؟)

قدمت له وثائقي.

(هل تريد رفع دعوة قضائية).

(لا يا سيدي أنا رجل مسالم ، وهذا صديقي في العمل وهل سنزيد حزنا أخر؟)

(المهم اذهب واسترح ، هذا استدعاء ليوم غدا سنكمل التحقيق).

تستقبلني زوجتي بالنواح واللطم ، بعدما طال غيابي أدخل غرفتي أستلقي ، ليحوم حولي جيراني، يسمعون قصة ،اللفائف البيضاء التي تحيط بي ويتحسرون على الأوضاع ثم يغادرون ويتركونني .

في الصباح أسمع صوت زوجتي :

(ارفع دعوة ضدهم ، سيرثون الكثير ، نحن بحاجة إلى المال لا تنسى ذلك)

نظرت إليها نظرة اشمئزاز.

(الحمد لله الذي خلقني موظف بسيط).

رن هاتفي، صديقي في العمل.

(أين أنت)

(سامحني تأخرت قليلا ، سأوافيك إلى مركز الشرطة).

(ألم تسمع؟).

(مات محمود البارحة في المستشفى).(الله أكبر)

***

بسم الله الرحمان الرحيم

(وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (*) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (*))

عصبية

لنا في الغضب والعصبية ، قصص وحكايات لا تنتهي ،يمتد جذرها الى يوم خلق الله الأرض ومن عليها ، لا أنبه ولا انهي إلا حفظا من العلي القدير .

يزيح عن شفتيه السيجارة التي كاد يلتهمها ، يخرج دخانها الأبيض من رئتيه ، يتأملني هنيهة ، أتخيله وأنا نصف هادئ.

مستلق على فراشي ووابل الذكرى يتساقط علي فيبلل كل مجالسي معه ، وخصامي له ، لكن يعود طيبه وكرمه لينشر السماحة على ما كان وما حدث ،فأدعو الله أن يخفف عليه ، ويفك سجنه .

توقعت هذه الخاتمة وهي في رحم الزمن...مندفع جامح بعنفه ، فمن يكبته.

(نفسي في الصراخ، والصراخ نفسي ، أنا متحجر بين ذلك كالمعلق من عرقوبه).

(أرجوك صه،، كلامك يرفع الضغط).

(أين العصبية التي تتحدث عنها ؟، هكذا ولدنا وهكذا نموت .عجينة طابت، واستوت).

(أنا أخذ حقي بيدي ، لا أتراجع أبدا ، هل تضنها عصبية ، كلامك فيه مغالطة كبيرة ، الدفاع عن النفس ليس عصبية .

نحن في كسب رزقنا داخل هذه المستشفيات ، نتخبط بين الفرح والحزن الشقاء والهناء الموت والحياة ،الألم والسكينة.

هذا المكان الذي قضيت فيه نصف حياتي ، أستنشق كل أنواع المتناقضات ،مرضى يتألمون وزوار لا يعتبرون، إذا سقطوا كرهوا كل شيء) .

سمعتهم يقولون (إذا شفيت سأزوجك يا ابني العزيز، إذا شفيت سأشتري لك سيارة ، إذا شفيت.....حتى إذا شفي عدل عن كل شيء وكأنه كان يمزح...نحن لا نتذكر الله الا إذا ضاقت بنا الدنيا، الكل متعلق بالمال حتى المرض).

(لا أحب رجلا يؤمن في الأوقات العصيبة حتى اذا فتح الله عليه انقلب على نفسه).

-قل : (شفاهم الله، وتمنى لهم الشفاء ما هذا البخل والجحود).

(كما قلت أنفا كلامك وتصرفاتك ترفع الضغط).

(سيجارتك هي التي ترفع الضغط).

(هيا صلاة العشاء على الأبواب ، أنا مضطر للمغادرة ، أوصلني ،حتى التاكسي في هذه الساعات قليلة).

يركب صهوة سيارتي ، يشعل سيجارة أخرى فتضيق نفسي ، وقد ضاق الجمل بما حمل ، ماهذه الصداقة .

أركن أمام منزله.

(إلى اللقاء غدا إن شاء الله ، قبل البرعمة روميسة نيابة عني).

يعود مهرولا قبل أن أقلع سيارتي...(لا تغضب أنا هكذا).

(تبقى على خير نوما هنيئا).

صديقي وأعرفه روتينه من نوع خاص جدا ، بنى عليه حياته لسنين عدة . يتسلل صباحا دون أن يوقظ أهل بيته ، إلا سيجارته التي كان قد أيقضها لثاني مرة . ثم ثالث مرة في المقهى المجاور لعمله. ثلاثة يغيرون مزاجه قبل بدء عمله، حتى اذا نفث أخر دخانها دفع ثمن القهوة وتوجه الى عمله.

يلتقي المرضى في بهو الانتظار وقد وجههم الطبيب إلى الأشعة ، يلبس مآزره الأبيض، يوقظ ألاته، يتوكل على الله ثم الواحد تلو الأخر.

حتى اذا أنهى كل الأشعة ، دخل عليه، شابان شيطانان من شياطين الإنس.

أحدهما يجر رجله اليسرى بصعوبة بالغة .

(نعم ماذا تريد؟).

(سقطت من فوق دراجة نارية، اريد أشعة لرجلي) .

(لكن يجب أن يراك الطبيب ، فنحن لاننجز بالأشعة إلا برسالة من الطبيب المعالج...اذهب اليه ليفحصك ربما هناك كسور أخرى).

(لا تملي علي ما سأفعل ،قم بعملك وكفانا كلاما).

تتدخل الممرضة المساعدة .

(هل أرافقك الى الطبيب؟)

(لا أريدهم الأطباء حمقى أنا طبيب نفسي هيا قم بعملك).

(سأمنحك أخر فرصة لتغادر أنت وصديقك).

(أيها المعتوه ، يا أكل الرشوة ، لو كان رب مال أمامك، ما ضيعت وقته).

تحس الممرضة المساعدة، بدرجة الاحتقان والغليان فتهرول لطلب الأمن، ولكن في نصف الطريق كان صاحبنا قد شحذ مقصا كبيرا، وطعن الأول في رجله والثاني في كتفه، أوقعهم أرضا ظنا منه أنه في حلبة المصارعة.

لن أنس أبدا الصورة التي تركته عليها، فبعد مكالمة هاتفية من ابنه الأصغر يبكي ويحكي فيها ما جرى، لم أنتبه إلا وأنا في مقر الشرطة ، واقفا بجانبه، وقد سكت عنه الغضب فندم ندما شديدا، يصرخ صراخا هافتا ويبكي قائلا:

(ما الذي أتى بهم عندي ،يا ربي؟).

(ارجوك ساعدني ، لا تتركني أدخل السجن، انا رب عائلة).

(أرجوك ، انت أقرب صديق ، أرجوك).

طبعا هذه الهموم توقعتها كما قلت قبل ميلادها ، وماذا ستلد العصبية ، لكن باسم الزمالة والصداقة ، وكل شيء جميل بيننا ، سأصنع المستحيل لمساعدته وفك كربه وهمومه.

أعشاش العصافير

الذاكرة خليل الإنسان في حياته ،يصيبه ما يصيبها من هموم ، وأقراح وأفراح ومتغيرات. فينحت الزمن فيها بصماته الخشنة ،توقظها الأيام بين الفينة والأخرى فتلبسها لباس العروس، أو لباس شؤم، يجعل استعادتها تعكيرا وحكرا للذهن والنفوس.

وقد تنسى ويلبدها الدهر بطوله ولياليه فلا تسمع لها خريرا في سيلها الجارف حتى قد قيل عنها : (ناقوس يدق في عالم النسيان) .هذا العالم الذي لم ينس قصتي مع أعشاش العصافير خصوصا وأنها ترتبط ارتباطا حساس مع شخصية عزيزة على قلبي وذاكرتي.

كانت أمي وما أدراك ما أمي ،حين غاب أبي وقسى قلبه كالحجارة، تسعى بضعفها لكسب القوت ،ومصارعة مرارة الزمن ، فتنهشها الهموم كالكلب الضاري تسترجل لتواكب عالم الرجال فيدفعها دفعا يطيح بقواها ، وستتأنث لأجلنا فلا تطيق ذلك ، فهي كالمعلق من عرقوبه أمام هذه الصراعات النفسية، ونظرة المجتمع القاسية اليها.

توقظنا باكرا ، أنا وأختي ، تلبسنا ، تغسل لنا ، تطعمنا بسرعة، ونحن نتناعس نتقاعس ...

(هيا يا أحبائي) (هيا يا عمري).

كلمات كلها عسل وحنان، يتبعها ما هو أسوء وأمر وأدهى.

(سوف تبقون عند خالتي الزهرة وفي المساء أغدقكم بالحلويات)

خالتي الزهرة كابوس نشأنا في أحضانه، لا يطلب من أمي إلا مقابل شهري إزاء تلك الممارسات السيئة والقهر واللاحنان والتمييز بيننا وبين أبنائها ، تنثر عليهم كل ماهو حلو على حساب راحتنا وفرحنا حتى ألعابنا من نصيبهم كل الوقت.

تمضي السويعات ببطء تعتصر الملل والمأساة والغبن ، حتى يحين زمن الساعة الرابعة والنصف ، وقرع جرس الباب ، فرحنا بعودة امي فأهرول أنا نحوها بسرعة وتمارس اختى طقوس استقبال من نوع خاص إذ تبقى تدور في ارجاء البيت وتصيح، ماما عادت، ماما جاءت، كلما تذكرت هذا الطقس لم أفهم سببه، رغم أن خالتي الزهرة عادة ما تفسره بتمتمتها :(عائلة مجانين).

قد يكون ضربا من الجنون لكن عودة أمي كانت كالغيث حين يسقط على الأرض القاحلة.

نخبرها ، نعاتبها ، ونشكيها .لكن دون جدوى ليس هناك سبيل أخر ، تطلب صبرا والصبر أكبر وأعظم من الأطفال ، كان مصيري أرحم من مصير أختي ، حين طرقت أبواب المدرسة لأول مرة في سن السادسة ، فقد كانت فضاءا وعالما أكسبني أصدقاء وانشغالات جديدة جعلتني أنسى وجود فكرة أم ثانية بلباس القسوة والمرارة.

هذا الفضاء لم يدم طويلا إذ جاءت العطلة ككابوس في أطراف حلم جميل ،فانتابني جنون وعصبية جعلتني أفقد صواب ورشد الطفولة ،أبكي بصوت عال وأضرب الطاولة بهستيريا فائقة

(لن أذهب إلى بيت هذه الشريرة)

(دعيني وحدي أنا أكرهك).

(أبقي وحدي في المنزل أنا كبير).

(لا سوف لن يرتاح لي بال).

كنت أسبب لأمي مشكلة حقيقية ، حتى إذا تعنت رأيي ،بكت بكاءا يخرج عذاب سنين ، فابكي وتبكي أختي .

رحمة بأمي أذهب عند الشريرة .

أجلس على كرسي ، لا لعب، لا أكل، لا كلام .فاسمعها بين الفينة والأخرى .

(من شاء أن يغضب فليغضب عند أمه)

(فليبحث له عن أم ماكثة في البيت).

عادت أمي كعادتها في مساءها ، دخلنا وكرنا ننتظر الليل لنتعشى ، وأجلستنا أمنا مقابل التلفاز ووضعت أمامنا المكسرات ، أتأمل حصة عن العصافير ، فالأم تجلب الأكل ، ولن تغيب طويلا ،بل هنيهة حتى تكون أمام فلذات أكبادها.

لم أكن اعلم أن حياة بني البشر ، أصعب وأدهى وأمر من حياة الحيوان.

أناديها لأخبرها دون قصد، في طياته الكثير من العتاب والسخط.

(أنظري ، حتى أمهات العصافير لا تترك صغارها عند أخرى ن ولن تغيب كثيرا)

كان هذا الكلام أكبر من سني ، وقاس على أمي ، بل كطعن سكين على قلبها المنكسر ، وجبر القلوب صعب، سأجمع كل أعذار الدنيا ولن تكفي ، لأني فعلا كسرت قلبها الطيب.

فستجبر مرة أخرى على إيجاد إجابة تطمئن بها قلبي الرهيف.

(هي عصافير وأبنائي أجمل من العصافير ، فهي لا تطلب أكلا ولعبا غالية مثلكم ،أنظر إلى بيتها هل يحميها من المطر والبرد .عيشكم يا بني تحلم به كل الحيوانات ليس فقط العصافير)

(أتعلم لما لا تغيب عنهم أمهم كثيرا، لأنهم سرعان ما يكبرون ويعتمدون على أنفسهم ، ليغيبو عنها مدى الحياة).

ثم تغير مجرى الحديث وهي تكتم وتتألم ، لتنسينا موضوع الأعشاش وتطرق أخر تتعلق به أفكارنا الهشة.

لتختم بمقولتها الشهيرة:(ستكبر وتفهم كل شيء).

عندما كبرت لم أفهم شيء ، بل حملت كل الشيء لوالدي، لأن أمي المسكينة لا ذنب لها فقط لأجلنا جمعت بين المتناقضين الأبوة والأمومة.

مازالت الأيام تدور ، ويعزف لحنها ، وتركض جيادها على سرح الدهر ،وأرض الدنيا فتمتلئ جيوبها بالصور الجميلة تارة وبالصور المزعجة تارة أخرى.

فتبقى وتبقى صورة أمي رحمها الله ، في عرش ذاكرتي ،مشرقة ، واضحة مزدهرة ، طاهرة إلى الأبد.

صاحب الحمار

زملاء العمل إيقاع من نوع خاص أرواحهم عذبة وأحبة، إذا مارست معهم اللامبالاة، أعداء يرسمون العبس والقطيعة ،ويغنون العتاب والنميمة، اذا تيقنوا منك الجدية والإتقان، ومنهم وسطاء جادوا علينا بالبسمات والنسمات، المهم الكسب الحلال المباح، ورقيبهم عملهم وربهم.

وأنا لعبة أحاول إرضاء وإقناع ذا وذاك، أما رئيسينا في العمل فلا يتقن إلا ،لا أعرف، ولا علم لي ، ويخبأ كل أنواع الكره والشجن والضغينة، لهذه السمنة التي عذبت الجسد واستضافت إليها بعض الأمراض المزمنة ،مما جعلته ينزل السلالم الرخامية بمشقة كبيرة ،يرتكز في كل مرة على الحائط ليعيد جمع أنفاسه التي كادت تغادر رئتيه.

بعد كفاح كبير يصل الطابق السفلي قاصدا (عبد الحميد) في قاعة الإعلام الآلي.....

(عبد الحميد) الرجل الطيب الهادئ الحنون ....يقضي جل يومه في هذه القمرة الزجاجية التي سميت ظلما (قاعة الإعلام الآلي) لا يجالس أحدا إلا الآلات ، تتقاذفه اليوم كله ،لا يهدأ له بال حتي يقضي على أسقامها .

يتوقف رئيس المصلحة ،يستنشق كمية كبيرة من الهواء .....يطرق طرقتان خفيفتان على الباب يفتحه ثم يجلس.

يتكلم مبحوحا (عبد الحميد، المدير يريدك).

(سأنهي مسح الملفات و أصعد إليه) .

(يا هذا لا تتسبب لي في المشاكل اذهب الآن) .

لست أدري لما روض هذا المسؤول الموظفين ترويضا، حتى صرنا لا نسمع في الرواق الا الهمسات و لغات الإشارة، ولما يطلب عبد الحميد، بعد أيام سيروي عبد الحميد السبب ، والشيء الذي طلب إليه قائلا:

استقبلني بحفاوة رابني أمرها.

(اجلس. اشرب العصير فقد حضرناه لأجلك)

(شكرا) باحتشام .

(لطالما ورد إلى مسامعي تفوقك في مجال عملك)

(هل أنت متزوج)

(لا)

(خيرا فعلت فالوحدة مريحة لكنها مؤلمة)

لما يطرح هذه الأسئلة ماذا يريد أن يعرف، أعلم جيدا أنه ماكر لا يحب إلا نفسه ولا يقدس الا مصلحته

يدخل في الموضوع

(لا أخفي عليك قد اعترضت سبيل صديقي في الولاية المجاورة مشكلة... في وحدته المركزية جعلته يفقد ملفاته و كل أعماله متوقفة)

(قد اشتكى إلي همه وأخبرته أن هناك من يفرج كربه)

(أتعلم من هو حلال العقد هذا)

(لا)

(بالطبع أنت هو أيها البطل)

(فهل فيك ما يحفظ ماء وجهي أمامه)

(وجهك يا سيدي محفوظ لكن بعد معاينة المرض)

(ستوصلك سيارة الشركة غدا ,ويكون إيابك مساءا عليهم)

(جهز نفسك وان احتجت لأي شيء اتصل بنا)

ما إن أشرقت الشمس حتى كانت السيارة تطلبني أمام باب المؤسسة

بعد ساعة وصلنا المكان المقصود ، قد كان في انتظاري أمين مدير المؤسسة ،الذي رحب بي لينتهي أمري على غرفة فاخرة جميلة ،بها الكثير من الشاشات الصغيرة، كانت مركز سري لمراقبة العمال ، وقد تربع الحاسوب المريض على زاوية صنعت خصيصا له.

أخذت أجس نبضه، و أحاول الولوج إليه من كل الجوانب ، وأمين المؤسسة يرمقني بنظراته يحاول المتمدرس أكثر مما ينتظر الفرج .

يدخل علينا رجل ببدله فرنسية، مع ربطة عنق ظريفة، و سيجار كوبي، يشده بأصبعين يرتديان خاتمان ذهبيان، وأنف مشدودة إلى الأعلى ،و عينان ثاقبتان كأنما سرقت ابتسامتها ،من دون أن يسلم ،أو يرحب، أو يهلل، يسأل في غضب آمين المؤسسة (أين وصلت الأمور؟)

ثم ينصرف.

سألت:

(من هذا الشخص؟)

(هذا مديرنا خبير في الحسابات ،أمي في المعاملات، جميله انه لا يفتح باب الشهية للواشين،

و المؤلبين)

بدى و كأنه يُكِنُ لي حقدا أو غلا دفينا .....كيف يراودني هذا الإحساس

كان دماغ الحاسوب ،محتلا من طرف الفيروسات ،و لم يكن تطبيبه ضنكا على أي مهندس مبتدئ في المؤسسة.

يلج علينا للمرة الثانية ، نفس التصرف ،نفس السؤال ، يرميه أمنيه بجواب أخر.

(قربنا من إنهاء الأمر يا سيدي؟) ثم ينصرف.

أكملت كل شيء و بدأت أتحقق من حسن صنيعي.

لقد كان هذا الحاسوب، الأمر الناهي الذي تخضع له حواسيب المؤسسة، حاله حال مديرنا . يعود المتكبر المتغطرس إلينا، أخبره خادمه بأن كل شيء عاد كما كان.

امسك هاتفه، واتصل بمديري ،وانزل عليه جبالا من الشكر، والثناء ،ووعده بمأدبة فاخرة ولم يَجد علي ولو بكلمة ترحيب، أو شكر، وأنا الأولى بالمدح من المدير، قادني الأمين إلى المخرج ،وكم ثار سخطي عندما اخبرني *أن سيارة المؤسسة معطلة*، و انه لن يتكفل حد بإعادتي.

في الحافلة تملكني اشمئزاز كبير، حين عقدت مقارنة بين قصتي، وقصة الفلاح الذي استلف حمارا للحرث ، استنزف منه قواه، ولما أرجعه انهال على صاحبه بالمدح والثناء، بينما هجم الحمار على الكلأ ينهشه نهشا، رد صاحب الحمار:

(مدحك كان سيقبل لوكنت رفيقا بالحمار، هومن اشتغل لا صاحبه)

على الاقل صاحب الحمار كان حكيما، ليس كصاحبي الذي لم يكلف نفسه عناء السؤال عني ....

الأن علمت لما يدعي مهندسو مؤسسته جهلهم بأمور الحاسوب.....

(يا سي عبد الحميد أخبرناك مرارا وتكرار احفظ جملة :(لا أعرف ولا أعلم) تحفظك من جبروت المسؤولين ...لكن الدنيا دروس).

أهازيج الربيع

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما

كذلك قال البحتري في وصف الربيع....

توقف الركب في الطريق, فتحت النافذة استعلم .إذ به قطيع أبقار يسدها ويوقف السيارات ،ألتفت يمينا، لأرى سحرا افتقدناه وعز علينا إيابه.

حقل كثيف اخضر مائل ..تداعبه يد الهواء الممتلئة بالبسمات والنسمات , يتوسطه يمينا مربع ورد اصفر ويسارا مربع ورد احمر، وفي الوسط خراف ترعى ، واقرب أليها خراف صغيرة تقفز فوق بعضها البعض ،تلعب ألعاب بهلوانية ، واقرب من ذلك حاميها الراعي الذي ينام وسط الخضار، يغطي وجهه بقبعة يتربع إلى جانبه كلبان أملحان ،والكل فرح بالربيع حتى العصافير في السماء الا نحن.

تهت بمخيلتي مع هذا المنظر المزخرف الساحر ، وإذ بشيخ اقرب إلي يقول : نم هنيئا أيها الراعي ،فالرعي مهنة الانبياء.

هذا المسرح الذي أسكرني جعلني أنتفض من أشخاص لا هم لهم إلا جمع المال ،فالدنيا جميلة نحن من لا نعرف الجمال وكنهه، يمر موكب الأبقار ، يتبعه صاحبه، تمشي الحافلة قليلا، ثم تتوقف أمام سيارة فاخرة ،تعطلت في الطريق، يركب صاحبها، الذي يحمل أغلى هاتف رأيته في حياتي، ببدلة تلمع لمعان الشمس ، وربطة عنق حمراء ،ووجه أسمنه ، الشبع وراحة البال والمال، يجلس بجانب ، عجوز ترتدي ثياب بالية ، فقط هو المكان الفارغ في الحافلة ، لم يتكلم معه القابض ولا كلمة ، لأن الحافلة ليست مكانه فقط الظروف هي من رمته، في غير مكانه، يحمل هاتفه ويتصل

، ثم يسأل القابض ما اسم هذا المكان ؟، فيجيبه بسرعة، وكأنه كان ينتظر السؤال، حتى القابض لم يكن من الأشخاص الذين تطمئن لهم النفس، ثم يبدأ ينادي في الركاب ،بصوت خشن(هيا ثمن الرحلة).

يقبض الثمن ، يناول الزبون تذكرة الرحلة، حتى وصل إلى العجوز التي تجلس بجانب الرجل الثري.

(هذه المرة ان لم تدفعي ، أقسم أني سأنزلك هنا في الغابة).

(دائما تركبين معي ، ابتعدي عنا اركبي مع الأخرين).

تدعي أنها تبحث عن المال في أغراضها ، والكل يتابع هذه الطرافة ليضحك ، مع علمه أن العجوز ، ليست سهلة وفي النهاية سيدفع عنها أحد ، وتشتم القابض كالعادة، فهي تعرفه وتعرف عائلته.

بعد عملية بحث صغيرة في أغراضها.

(كانت عندي مئة دينار وسرقت مني ،سرقها هذا الرجل الذي أجلسته بجانبي).

ينادي القابض.

(السائق توقف ، سأنزلها).

يحاول الرجل الثري الإلتفات إليها وتمنعه رقبته الكبيرة من الدوران، فيدير جميع جسده.

(ماذا هناك يا سيدة؟).

كانت عندي مائة دينار وسرقتها مني.

في هذا الوقت كان كل ركاب الحافلة يضحكون ،والقابض يغضب ويشتم ويغلي.

يدخل الرجل الثري يده في جيبه، يخرج منها، ربطة نقود، يمسك ورقة خضراء ويقول للعجوز.

(كم هذه ياسيدة؟)

(ألفي دينار ياولدي).

وهذه ؟

(ألفي دينار أخرى).

كم المجموع؟

(أربعة ألاف دينار)

(خذيها ، هنيئا لك).

(أنت يا ولدي رجل ملاك، الذي سرقني هو القابض ، المشوه الوجه،ذو الخلقة البشعة).

يحاول القابض أن يخطف منها المال ، لكن تخبئه بسرعة، والكل يضحك،وهو يصيح.

(الأن ستدفعين ثمن تذاكر عشر أيام ماضية).

ينطق أحد الركاب ،(هيا إدفعي الدين)ترد هي:

(القابض يكذب ، أنا أول مرة أركب هذه الحافلة ، فسرقني هو ويحاول أن يسرقني مرة أخرى، حتى صادفت هذا الرجل الملاك، أنظر إلى القابض إنه يشبه إبليس).

فينفجر الركاب بالضحك ، حتى الرجل الثري،أظن أنه أدرك جمال البساطة، وسعادة الفقراء، لكن القابض إمتلأ غيظا منها.

(قلت ستدفعين يعني ستدفعين، حتى وإن رفضت سأرتكب جريمة،و أدخل السجن لأجلك)

(انت لا شيء ، أنا أعرف عائلتكم أنتم شحاتين، الله لا يرحم ، صاحب الحافلة الذي وظفك عنده)

ينادي عليها السائق : (كفى شتائم ياسيدة).

(أسكت أنت الأخر تحاول سرقتي).

الركاب يحاولون تأجيج الموقف بهدف الفكاهة.

يضحك الرجل الثري، ضحكا لم يضحكه في حياته كلها ،وربما شائت الأقدار أن ترميه في هذه اللحظات الجميلة السعيدة ، وقد فهمت غبطته حين نزل وناول القابض ألفي دينار قائلا:

(شكرا على الضحكة الجميلة ،كنت غاضبا مغموما، مهموما).

سيسامح القابض المرأة العجوز لأن الربيع وأهاجيزه هي من أمرت بذلك، فالماء والخضرة يذهبان عن المرء الحزن.

أكاد أجزم أنه لكل زمن رجاله ولكل أن أوانه،فالدنيا ساعة اجعلها طاعة والنفس طماعة عودها القناعة،وانك ان تك ذا قلب قنوع انت ومالك الدنيا سواء.

نصيحتي ايكم خلق الانسان في كفاح ،فلا يرتاح، حتى يضع قدما في الجنة ،لا تتنازلو عن طموحاتكم حققو امانيكم.....

شهيد فوق حسنات المجهول

مشرئب العنق, جاحظ العينين ,مرفوع القامة, تجتمع فيه كل عوالم الزعامة حتى تقاسيم الرجولة بادية على وجنتيه إنسان بنكهة البطولة ومأثر العظمة ... أبدا... لم يكن سهلا وصف هذا الرجل خصوصا وأنه فتح أذن عينيه كلها على المرأة التي دخلت مسرعة (ياويلي ياويلي العسكر في كل مكان)

يتفوه مشمئزا :(كانت رائحة الخيانة تلوح في الأفق لكن غادرني الشم حين إحتجته).(خبر الخاوة) لا بد أن نصل الى الجبل (جبل مناور) ... الطريق شرسة بأنياب لا ترحم والموج العاتي يترفع ويعلو رعود الحرب تشق الأذان، سنصل بأي ثمن صدورنا لها دماءنا للبلاد، ليته يحمي سادات المعركة.

ما بقى إلا القليل اصبروا، صابرو ،كانت المفاجئة وصديقتها المباغتة حليفتان للعدو تشدان أزره وتحطان من عزيمة أسودنا الغضاب ....هاتان اللئيمتان تأرقان وتختفيان أمام (سي رضوان)

يخرج من بين الشقوق وابل كثيف ,قفو ا . قفوا إنها فرقة فرنسية, يتمسك الكل بالأديم.

يلتحم الرصاص في الهواء وتبدأ وقائع سرد عنيفة لاترحم يقدم فيها (سي رضوان) أزكى وأطيب الأوامر

فض الإشتباك المبدئي إنها كومة صغيرة من الأعداء.(يا الخاوة) هدفنا وصول الجبل.

كانت سباحة ضد التيار.

الواحدة زوالا بتوقيت الدراية عند أهل المكان .حط الزعيم وركبه الموكب على جبل (المناور)

ذي التضاريس القاسية والسد المنيع صاحب الدفاتر المبعثرة.

أه من يد المعركة إذا أحكمت حلقاتها , أه من ذكراها أدمت ذاكرتي.

يرتدي الكل حلة الإستعداد ويردد (سي رضوان) الله اكبر ، الله أكبر والكل وراءه.

تدق طبول الحرب من جديد ...السحاب مخيف لكنه دنى اما البطل.

تقدم خبئ رأسك, إضرب, إنتظر, لا تخف كلها كلمات تصدر عنه دون علم ودون توقف. نقمة العطش لم تتحدث منذ يوم أمس. والجوع فر حينما خبروه عن الرصاص.

تتقدم المزنجرات .....أفواه المدافع تقذف من دون توقف, صبرا جميلا تقدمي يا مروحية تقدم ايها الدبور العظيم, ويخرج من تحت الصخور يرشها بوابل من الرصاص, فتهوي بعد أن غادرتها الروح فتحدث دويا في الاجواء زاد من عزيمة الأبطال.ملحمة كانت أشبه بإحدى معارك (طروادة) أعلن الكل وطنيته فيها. قاطعتهم قنابل (النابالم) الضارية التي تعوي خلف رجالنا.... جائت الضائقة حين نهشت بطلنا المبجل فسكتت توابل المعركة... بعد قليل إنتفى الحجاب وإشتبك البعض بالأيدي.....

لابد من وجود نافذة نخرج منها (سي رضوان)....هيايا رفاق. عقارب النصر كلها معنا....سيحل الظلام, سيحل الظلام.

إسود الظلام وبان الفرج بعكازه يستنصر من بقى من الجنود حيا.

كان حينها بطلنا يسبح في دمائه...هيا تنفس لاتفقد ا لوعي, نحن معك , نحن فداك.

ارسل الفجر رسله يطلب الإذن للدخول , لكنه تأسف لهول الفاجعة, الموتى في كل مكان ودوي العربات والطائرات وعمليات الإجلاء ترهق الارجاء.

(يا سادة قد تهربون معي الى كل مكان , لكنني في قبضة المرض .....أرجوكم أتركوني أستنصر

ما بقى من الرجال حيا)

صعب أن تترك سدى ,وأنت ماس غير موجود...لكن هي أغنية الدنيا ومشيئة القدر.

يسقط (سي رضوان) في يد الفرقة الإدارية الفرنسية ليزف بعدها بخيوط من حرير الى منتهاه.

تنفست الهواء حتى خنق رئتي وقلت مات أحد سلاطين الحرب قتلته فرنسا وأعدمه المجهول, لو عاش ما كان ليغفر لي تطاولي عليه بالمدح.

رفقا...

نوع من الجمال أحس به منذ نعومة أظافري . زخات من المطر تضرب الأرض تثقب أديمها , وأنا تحت المظلة ... لست مجنون لكني أجد الراحة في الجنون .هذا الاحساس يلهمني ،أحس وكأني ولدت من جديد وبالجديد،تغضب الطبيعة ويتلبد وجهها ، بينما أفرح أنا وتبتسم وجنتي، إلا هذه المرة حين باعد شوقه النوم عن شارعي.

المطر يستعبد الأجواء ، والسماء تلقي بعبراتها دون توقف ،معها ريح يغير مسار سقوطها الحر ، فتضرب حبات المطر النافذة ،برمية من يده ، فأحس بها وكأن يدا حاولت فتحها، أشعل المصباح ثم أطفئه لكن إلى متى؟...هناك شيء في خاطري يدفعني للخروج، لا كيف ذلك ، سأبلل نفسي ، يضربني البرق

لا ثم لا ،أفكار كثيرة ،خوف وقلق ...في النهاية أنهض ألبس معطفي، القطني الفرنسي الطويل ، أحمل مضلتي وأخرج، إلى أين ؟؟

حتى الباب يفتح بصعوبة،أدفعه بقوة ، ليعود إلا خلده بسرعة ،أه ...المفاتيح الحمد لله هي في أحضان جيبي ، لم أنساها كعادتي .هذا الشارع الماسي العتيق الخالي كبله القارص والماء...حبات المطر تقرع طبول الحرب على الأرض ، تحاول هدم المنازل ،لكن لا حول لها لذلك ، حركة الناس كانت كحركة النمل في الأيام الماضية، قادمون ، وافدون ، عائدون ذاهبون ، لاسلام ، لاكلام ، أما اليوم فكأن الكل موتى ، لا صوت ، لا أنين ،دون حركة السيارات ، وإزعاج المحركات، فعلا سجن من نوع خاص تفرضه الإرادة الألاهية ، فتطبقه الطبيعة بجنودها البواسل .

أمشي الهوينى خشية المستنقعات ،فيدفعني الريح المحمل بالماء، ليرجعني إلى الخلف هل يحاول الكلام ؟:(إرجع إلى بيتك، يامجنون). أبتعد قليلا عن مخدعي وإذ بي أسمع نداء إستغاثة من أليف ربط من نحره بأصفاد قاسية شدت إلى وتد حديدي ،كلب أمام بيت فاخر يلطم لطم الجاهليات تمارس عليه الطبيعة القاسية شتى أنواع العذاب لكن لمذا ؟ ،أين الجيران، أعرف الشيخ البخيل البغيض ، صاحب هذا المنزل،يملك من المال، ما يشتري كل هذه المدينة ،وفي فؤاده عشق سرمدي له،ما يدفع به إلى الإنتحار والتضحية لأجله، البخيل سبب البلاء في الأرض، الجيران سمعوا صوت العذاب ،ولم تأخذهم رأفة به خشية منه،ومن حقده، لكن كان الأولى أن يتصلوا بالشرطة، (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).

نظرت يمينا ثم شمالا,هممت إلى الكلب وأنينه الخافت يؤنب مسامعي...أحاول فك القيود، وأطلاق سراحه، ما هذه الأصفاد؟ ...التكبيل بها عذاب ،أحاول مرة أخرى ،ربما أخرج رأسه من الرباط ، الكلب مبلل ، والحديد أكثر منه وينزلق ،دون جدوى ، حتى هو يتطلع إلي ، يحاول الرضوخ لمساعدتي ، أه دخل الماء جسدي...لابد أن أتصرف، أنا أمله الوحيد بعد أن قست القلوب كالحجارة ،أبحث بجانبي ، ربما قطعة حديد تساعدني ، لا شيء إلا الماء والمستنقعات،نافذة تومض بالضوء من هناك ربما ستأتي المساعدة، أنتظرقليلا ...لا،للأسف ، سأعود إلى منزلي.

(ألو الشرطة).

(نعم).

(هناك كلب ،.....)

(العنوان من فضلك).

(العنوان هو.....).

لا لن أنتظر، الشرطة،أتوجه إلى المخزن، أحمل "كماشتي" الضخمة وأخرج، لنجدة المظلوم.

حين رمقني سكت عن النواح،يطل رجل من النافذة التي ومضت بنور خافت،أمسك الأصفاد بأسنان الكماشة ، يرضخ الكلب في الأرض ويسكت، إنقطعت الأصفاد ، تحرر الكلب فتوقفت سيارة الشرطة بجانبي.

(أنت صاحب الكلب، لا أنا من إتصل).

هذا ما تذكرته في الحالكات الماطرات.

عصامي

جسر عظيم من المودة, تثبته ركائز الأنس تثبيتا محكما ,أحاطت بها رياح الكره

وأعاصير العداوة ,تربصت بها الهيجاء, وعادتها البغضاء فما مسها قيد أنملة...أرى أن الإنحطاط في أفكارنا تسلل الى جذورها نكل بها وجعلها تستغيث:

أنقذوني من أميي الفكر ومتكبر ...جاهل بشهادة.

ختمت نصيحتي إليه قائلا لايتحدث عن الشهادة إلا جاهل).

غادر أحمد المقهى نصف غاضب، دفع الكرسي بقوة ، ولا يلتفت لنداءاتنا ،هذه المرة لا يكتم غيضه،بعد طعنات كلام الدكتور الغبي:(أتستشير شخصا لم يدخل المدرسة قط) أعرف أحمد ذو الأربعين عاما ،مرهف الأحاسيس ، شجاع بمواقفه،يرسل كلماته لتسعد الناس لا لتغضبهم،أضن أنه خريج مدرسة الظروف القاسية ، لأنها جعلته لا يلتحق بالمدرسة،لكن عوض ذلك بعصاميته ، ومذا قدمت المدرسة؟،مثل شعبي يقول خذ المتعلم ، واعطيني الفاهم).

العينة أمامنا دكتور نتمناه لا يأتي، أشبعنا مدحا لنفسه، وتباهي وتكبر،سيظل لساعات معنا في المقهى،اليوم عطلة أسبوعية،لايستطيع العودة الى منزله قبل الساعة الثانية عشر ، حسب أوامر الزوجة، سيعيش إكتظاظ المقهى ، وفوضاها ، أرحم من غضب الخليلة وتأنيبها، يعيش بشخصية صفر ، لم تعلمه الشهادة كيف يصنع ذاته وهويته وضميره ،نحتسي القهوة بغيض كبير ،أستدير إليه قائلا:(لما تتعمد غضبه؟)

(وهل أنت محاميه، ياصديقي فاقد الشيء لا يعطيه).

(صراحة لا أؤمن بأن هناك شخص تعلم وحده).

أغضب الكل حتى صاحب المقهى ،يقبض الثمن، يرجع الباقي للزبائن، ويتبع ما حدث بغيض كبير، زبائن ثقال الدم والمزاج أما الأصدقاء: (إن بقيت هكذا ستفرق مجلسنا الى الأبد).

(لما تصنعون له كل هذا الإعتبار ، هو من أخطأ ، هذا مجال علمي ، كان عليه أن يلتزم الصمت ، إذا حضر الماء بطل التيمم).

(إذن انت الماء وهوالتيمم)

يقهقه بقهقهة تثير نرفزة الحاضرين.

(ها ها ها ها

انهى الأولى ليعيد الثانية،فتقطعها عليه عودة أحمد،محمر الوجه ، بوجنتين غاضبتين ،وعينان تنظران هنا وهناك من شدة النرفزة، بدى يحاول الإنتقام من شدة غضبه ، يستقبله دكتور الكبر، بقهقهة أخرى

(ها ها ها لا يوجد مكان يذهب إليه).

(إسمعوا سأناظر هذا الغبي).

(أنت تلعب بالنار

(هذه خمس مائة دينار مني).

يصيح الزملاء نعم ، نعم هات نقودك انت أيضا ، هل أنت خائف؟).

(أنت تلعب ، بالنار ياصديقي ، لكن الف دينار من نصيبي شيء جميل).

(لا تقل لي أرجعها لي ،ماهي قوانين اللعبة؟).

(أستاذ محفوظ هو من يحكم بيننا).

يلتف الجميع ، حول طاولتنا ، لكسر الملل ، وللبحث عن جو سعادة جديد يقتل ساعات الصباح ، الى حين وقت الفطور، بينما يمسك سي محفوظ المال، ويكتب هووبعض المثقفين أسئلة في أوراق صغيرة يلفونها، ويخبئونها عن العيان، يصيح صاحب المقهى من هناك:(إن غلب أحمد، المشروبات ستكون مجانية

يقاطعه الكل لا داعي للجهوية، سي محفوظ سيكون حكما).

يرد هو ثمن المشروبات موجود ، الألف دينار التي سأربحها).

سي محفوظ عشر أسئلة لكل منكما، لن تكون هناك أي مساعدة

(سنبدأ على بركة الله ،كما شرحت لكم قواعد اللعبة ، هيا إختر أول سؤال).

يجيب ، بسرعة ، كأنه على طرف لسانه،

(دورك سي أحمد).

كان السؤال الذي إختاره أحمد صعبا نوعا ما ، أجاب عنه بصعوبة كبيرة.
إحتدمت المسابقة بينهما وكشر الأستاذ الجامعي عن أنيابه متباهيا بشهاداته كان ندا له في هذا المقهى المتواضع بتعليمه البسيط. إنقض على جميع الأسئلة فالتهمها لم يترك منها شيئا، أما صاحبه فقد تغلبت عليه بعض الأسئلة وبدى حسب شهادة اصدقائي كالقط الشجاع الذي لا يهاب أي مخلوق....ماهي إلا دقائق حتى بدأ الأسد يشرب الماء ويتسايل عرقا يحاول النجاة من أنياب أمسكته من الحنجرة....
إنسحب الاستاذ من المعركة خاسرا، مبررا ذلك بالغش والمحسوبية ،ولم يعترف

بالمسابقة ، لكنه ترك شاهد عيان سينقل ماجرى نقلا شرسا.

هذا المسرح الجميل في مقهى متواضعة بطلاه رجل سمي صاحب شهادة عليا، ورجل تواضع وكسب علما بالكد والتعب هل هذا من باب ما لايقارن؟

العصامية طرقت ابواب الكينونة و اورثتنا صورا جميلا لابطال تركو بصمات خالدة في مجالات عدة على مر التاريخ

قد اتهم بحبي المفرط لعباس محمود العقاد سأجيب حينها حبي له عشق للاسس العصامية..

فارس موقعة الحلاقة

ورثنا عن الحضارة الرومانية البائدة، حمامات معدنية عتيقة، حاولت الحقب المتعاقبة تزيينها بسندس معماري خاص بها، يجعل استصدار شهادة ميلاد، هذه المعالم تنسب إليها. لكن تبقى الأصول على أصولها.

أما بالنسبة لحمام ،حينا فلا يختلف عن إخوته الخمسة في شيء غير الإكتظاظ ،الذي يمارس سلطته عليه، أيام العطل والأعياد والمناسبات المختلفة، فتكلفته السخية ، تجعل البسطاء والعامة ، ينقضون عليه، لتلبية مطالب الراحة، فلو إرتفع ثمنه قليلا ، لخف ضغطه وتغيرت جيوب الزائرين ، ولون الزبائن...

في أيام الصبى كنت أحمل أمتعة الاستحمام ، وأتبع خطى والدي وصديقه ،فيطرق باب أذني سخطهم وتذمرهم عليه ، ومع الأيام إنتقل هذا الإكتظاظ إلى أفكاري وأصبحت تعج به ، الغريب أنه لا دواء لهذا السقم غير الاستحمام والاستجمام.

ففي يوم مشرق جميل ، توجهت كعادتي إليه ، وتربعت على عرش بركة الماء المعدني الساخن كغيري من المستجممين الذي بدد ملامحهم البخار المتصاعد من البركة كالضباب الكثيف، ومع ذلك تسمع صوت النافورة الكبيرة التي تدفع الماء دفعا يشق أطراف البركة، ولكل سننه في الإستحمام...

.....بعد ما ارتديت مناشفي ، خرجت إلى ردهته ،أرتاح وأصطاد الهواء العليل لينشرح قلبي ويزول معه سيلان الماء والعرق، الذي خرج من مسامات جلدي. تقابلني مرآة كبيرة،تعكس بوجهها كل أطراف القاعة ، وفي أخر الردهة يجلس شيخ بلغ من الكبر عتيا ،يمثل أعلى قيم الأصالة . يرتاح بعد أن نخر البرد جسده العليل، ويئن من تعب الماء الساخن ، ثم يتأفف فيزول هذا الأنين تدريجيا ....

يخرج بعد مدة شاب يضع على رأسه منشفة ويحمل محفظة فاخرة يتجه بها الى المرآة. يقف في استعداد أمامها و يكشف لها عن شعره ،الذي خف من الاسفل وطال من الاعلى.

كانت نظرات الشيخ قد شخصت إليه مستغربة أي مخلوق هذا.....فتح الشاب المحفظة واخرج مراهم وأمشاط فاخرة واخذ يدعك هذا الشعر بشتى أنواع المراهم لأكثر من عشر دقائق.

ليبدأ قتال غريب جدا بين الشاب وشعره ،فأمسك أحد الأمشاط التي تسلح بها .تأمله هنيهة ثم وضعه ،ليسل مشطا أخرمن عن غمده ، ويمسكه مسك السيف للقتال . وأخذ يتفنن في ذلك الشعر لمدة طويلة، إذا تعب مشط أبدله بالأخر،مع إجراء عملية دعك أخرى ،من شأنها أن ترفع معنويات جند الشعر ، الذي كان يتأهب لحالة طوارئ شعرية ، ثم يعود كما كان في حالة إستراحة، وفي كل مدة يسرح تسريحة جديدة، مقرفة...يتوقف يتأملها، ويعرض الفكرة على أفكاره التي كانت توجه القتال عن بعد،عسى أن تكون ضالتهم. لكن الغريب ان كل تسريحة تمثل حيوانا معينا، إما حصان إما ،قرد، إما طاووس.....

بعد قتال عنيف وأخذ ورد بين الشاب ،وشعره ،إستعملت فيه شتى أنواع الأمشاط المتطورة . إنتهت حرب الرابح فيها خاسر.....واستقر رأيه وموافقة جميع جسده على تسريحة تشبه القط حين يفزع ، وتنفست الأمشاط الصعداء حين جمع الشاب متاعه،وولى جيشه، ثم ارتدى ثيابه مغادرا الحمام. بقي الشيخ مستغربا ثم قال : (نصف ساعة من أجل تسريحة شعر) قديما لم نسمع بشيء اسمه المشط ثم قال: (اللهم استر أبناءنا) لا طالما نهنا الكبار من هذا الجيل...

شاركته كثيرا هذه الحيرة ، ثم حدثت نفسي ومشاعري:(ألم يعلم انه اقتدى بالغرب و من تشبه بقوم فهو منهم).

ثم إنه يعاب على الحلاقين تفننهم في عفن لا طائل منه ،حتى أصبحت رسوم الحشرات والحيوانات على الرؤوس وهم يعلمون أن جباه العرب شامخة.

حدثت نفسي هنيهة تغزوني الحكم ،والأقول المأثورة، ثم قلت لمن تحكي زابورك ياداوود.....

قضيت أمرا جئت لأجله فانصرف..

كانت ممثلة

يا صديقي:

لم يعلموني ، ولم يكلموني عن الواحد الماجد الأحد، علموني كيف أحمي نفسي من الغبن والزمن والمحن ، لا يحميك إلا سيف المال ألهتهم الدنيا وباعها ومتاعها .

البطل...البطل من يتقي الدنيا البطل ،رب المال بطل.منذ وعيت واستقويت سرت على نهجهم ودربهم ، قلدت خطاهم .أطرق الأسباب ونسيت رب الأسباب وفي النهاية لا يكون إلا ما شاء وقدر ، الحكاية والأقصوصة هي الدنيا ، أبطالها نحن.

نعم نسوني ونسيت نفسي وغصت في طلب الرضا منها لامن خالقها حتى جاء أمره وتيقنت أن حياتي دون خلف عبث لا طائل منه، البنون زينة الحياة الدنيا ، بل جائني منذر ونذير،واشتعل رأسي شيبا ، وحيدا أغار من كل من يحمل طفلا، فينتابني الأسى والمأساة .

حين استيقظت وجدت نفسي بعد الأربعين فكان لابد أن أعجل بالزواج, وانهي وساوسي وندمي على مر من زمني , فالدهر لا يرحم ومتاع الدنيا لا يسئم.

أرسلت إلى أذهان الندماء والأحباء,علهم يخففون علي مشقة البحث عن خليلة وحليلة ترتاح إليها النفس ويطيب إليها الأنس.

جاء بعد أيام صديقي يخبرني أن زوجته وجدت لي طبيبة ,حبيبة,نسيبة , رقيقة, صديقة,جميلة, أصيلة, مخلقة, منمقة , كأنها الربيع حين يلونه البنفسج وتكسوه زهور الأقحوان.

وأردف قائلا قد بالغت زوجتي في ذكر جميل إحسانك وأخلاقك ومناقبك...قد خبرناك ودودا رءوفا عطوفا, إذا مال ميلك إليها فهي لك واليك, فنحن الآمرون لأهلها القادة لمستقبلها, إذ جدنا عليها برقمك لتخابرك وترتب الأمور معك.

حين أغمضت عين الشمس البراقة , رن هاتفي يلوح برقم غريب , فرددت في عجل ووجل , وبدأ يخرج منه صوت جميل هادئ , دافئ...أنا فلانة ,قلت أنا فلان وغصت في الحديث أسائلها عن نفسها فردت: دون أن تسألني عن الشكل والهيكل والعقل أنت واعي (أنت واعي وأنا واعية وجمال الخلق من جمال الخلق ودريت في دنيانا أن ما تراه الأعين ليس كمن تذكره الألسن,وليس من رأى كمن سمع.لذلك اضرب لي مكانا عاما نلتقي فيه نتشاور نتحاور)

.....وفعلا كان ما أرادت وتقابلنا فوجدتها بدرا في تمامه , سلطانا في مقامه.حديثها حديث الحكماء والخطباء والعقلاء .كل جميل فيها شدني إليها إلا لباسها القصير الذي فتن عباد البصير.

قالت :(لي شرطان إن وافقت عليهما كنت لك الوفية , البهية, السميعة المطيعة.

أولهما : عملي هو أملي لن أبدله مهما كان ومهما حدث.ومرتبي نصفه لوالدي لطالما سهر على تربيتي وتعليمي).

قلت :(أنت حرة في كل شيء وان زدت شروطا وافقت عليها لكن لي كما لك شرطان دون سواهما). أولهما: (أمي تعيشي معي ليس لي غيرها وليس لها غيري. قالت موافقة والشرط الثاني هندامك لا بد أن يكون محتشم ومحترم لا ألزمك بالحجاب أو الجلباب أو النقاب ولكن لباس الحياء والسترة فنحن عائلة لطالما حافظت على عاداتها وتقاليدها).

وهنا بدت وكأنها تلقت طعنة في القلب إذ وقفت غاضبة متجهمة وحدقت إلي يملئ وجنتيها السخط والأسى قائلة :(لباسي يمثل أعلى قيم الموضة والكل يفرح لأناقتي إلا أنت . انسى ما دار بيننا وانسحبت وتركتني غارقا حيرانا في أمرها).

تأملني صديقي هنيهة ثم سألني :(هل أخطأت أم لحنت في الكلام يا رفيقي)؟

(لا يا صديقي ما أخطأت أبدا فالنساء امرأة تغنيك عن ألف امرأة وامرأة تكرهك كل نساء الدنيا)

و رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ "الدّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدّنْيَا المَرْأَةُ الصّالِحَةُ"

ولا اضن انه في زمن تشن فيه العنوسة حربا غوغاء ترفض فيه النساء العرسان لأجل اللباس فحسن الكلام والمقام كان مظهرا ولا اضنها كانت من نصيبك.

ياسيدي من ألفيت كانت ممثلةَ..

لا رجوع

لا تمدح نفسك،دع الناس والأيام تتحدث عنك وعن مأثرك، فالمجد نسيج تبدع فيه ، ويروى عنك،ضقنا درعا من محاضرتك، إلتهمت كل الوقت ولم نستفد شيئا، سئمت المسامع من أنا ، أنا.....

أنت من الهالكين لأنه: (أربع مهلكات للعبد،أنا ونحن ولي وعندي).

صار البعض يسمي إجتماعك "اجتماع الهرطقات والخرافات" لسنا ندري عن قصصك ومغامراتك هل هي حقيقية ، أم ضرب من ضروب الكذب والخيال .

سئمت كما قال نزار :(أن أ بقى كالقشة تحت الأمطار) ، جبت بعتابي بين خواطري ونفسي وفؤادي، أما نظري فلم يسقط عن رمق وجهه الذي سمر أمام المكرفون ، كي أبدي إهتمامي بكلامه الزائد عن تعظيم نفسه وسأخفي الحوار النفسي إلى ما بعد الاجتماع.

أوف ...أخيرا ،وبعد أن تعرقت أذهاننا ،يختم إجتماع المدح وفلم البطولات والخرافات.

لا أخرج مهرولا ، حتى لا ألفت إنتباهه كما يفعل الأخرون.

استنجدت بصالة رحبة كما فعل المتضررون ، ضحايا الهرطقات والخرافات فينطق كبيرهم:(أشبعنا كذبا ، وكتم أنفسنا بأفلام الرعب).فيضحك الكل وأضحك معهم .

هنا أجد مخرجا للشحنات والمكبوتات والغيض المتراكم في نفسي : (ياإلاهي متى يشفى هذا الغبي من الكذب)،وأبدأ بتقليده مستعملا السخرية والإستهزاء ، واضعا نهايات مضحكة ، للقصص البطولية التي احتل عقولنا بها فأنثر السعادة ،وأشغل محركات القهقهة والهأهأة، ليملء الضحك الهستيري القاعة، فأروح عن المنحورين بالكذب

حتى النساء صرعت من شدة الضحك، فالحمد لله أن المدير قد غادر بسيارته ،وإلا كان قد فرق هذا الدوي بصياحه المزعج.

فعلا أخرجت ثقلا كان ينغص حركات فؤادي ،بعد أن غمرتنا مياه السعادة من كل الجوانب ، ففرقت بيننا المنظفة:(هيا الضحك ليس له حدود ، كلكم تنصرفون وأبقى أنا هنا).

نفترق مسرورين إلى حالنا وأحوالنا ، بعد هذه المؤامرة الهزلية.

في الصباح أدخل مكتبي منشرح الصدر كعادتي ، وفي كفي فنجان قهوة ،وبين اصابعي سيجارة أخفيها عن الزملاء ، فالنساء في عملي تبالغ بعطسها في حالة وجود سيجارة.

يدخل أمين المدير.

(سي علي المدير يحتاجك).

(أعرف فكل التقارير والتصاميم جاهزة).

أحمل نصفها في يدي ، والباقي أتأبطه ، ويتملكني الفخر لإنجاز هذا العمل الضخم ، فيدفعني لأغير مشيتي وأقلد مشي الطاووس.

أدخل عليه وهو مطأطأ الرأس، يعبث بموبايله الضخم.

(صباح الخير سيد المدير).

(أنهيت العمل المطلوب في أجال قياسية).

أضعه أمامه ،لا يزال مطأطأ الرأس ينظر إلى الموبايل .

(علي... استرح أحتاجك).

بعد خمس دقائق يقف وقوف الديك، ويتجه نحوي.

(علي أنا رجل كذاب؟).

سؤال غريب، أربك مسامعي ، فأجبت مرتبكا ، بشعار يردده العمال أمامه.

(لا يا سيدي أنت مديرنا وقدوتنا).

(إذن لماذا تقول للموظفين أني كذاب؟).

(لا...أخبرني من قال هذا أنا مستعد لمقابلته).

كنت أعلم أن كل الموظفين يخافون قوتي وجبروتي ، ولا أحد يجرؤ الوقوف أمامي.

عاد الى مكتبه ، وأشعل موبايله ، اسمع صوتي ،يسخر ويستهزئ منه والكل يضحك.

سمرت وأصابتني الدهشة ، لقد تم الإيقاع بي كالذئب حين يقع في الشرك، ولم اجد ما افعل.

يعود ويقف أمامي.

(ماذا تقول إذا؟).

المسألة أكبر مني ، إما أن أكون بطلا ، أوجبانا يتحدث عنه العمال، ديك أو دجاجة،القضية قضية كرامة، فأنا لست صاحب خرافات وبدع وهرطقات، إذ أحسست بذل ، لم أحس به في حياتي كلها.

هنا إنفجرت وخرجت نفسي عن عادتها.

(نعم أنت أكذب الكاذبين، وصانع أفلام و...و...).

فر من امامي، يستنجد بجرس مكتبه.

(نادوا على الأمن ، نادوا على الأمن ، يحاول ضربي).

رغم اكتفائي بالصياح والصداح.

يهرول الجميع الى مكتب المدير ، والكل ينفخ في روايته فقد قيل:

(هجم على المدير وضربه) وأخرون (حاول قتله) و.....

فأججت المكان حين شتمت الموظفين (كلكم حركى ، ذئاب وشاة).

عمي عيسى الرجل الطيب ، الذي يترأس نقابتنا يسد فمي بالقوة ويمنع خروج الشتائم.

يقول (حشم)...(حشم لأجلنا).

لم يكن موجودا بالأمس حتى أضمه إليهم.

أخرجوني بالقوة ، أدخلني مكتبه ،وأغلق الباب .يهدئني ينزل غضبي درجة بدجة على دراية بإسكات الغضب، حتى وجدت نفسي أمام باب المؤسسة.

(سي علي ،أرجوك، إذهب إلى بيتك واترك لي أمر المدير).

أجول في أرجاء المدينة ، أكثر من كيلومترين ، دون عقل، أتكلم كالمجنون في الشوارع والأحياء والزقاقات الضيقة.

في المستشفى أقيس ضغطي..(إحقنيه ، وليرتح قليلا).

بعد سويعات، سكت عني الغضب ، فأعود الى منزلي ، أغلق باب غرفتي لا أكلم أحد.

تطرق زوجتي باب الغرفة ، أنهرها واشتمها هي الأخرى.

بعد فترة اسمع طرقات أخرى ، فأعيد شتمي بطريقة غليظة ، مرتفعة.

(سي علي ، أنا عمك عيسى ، سأنتظرك في الصالون).

أخرج ووجهي محمرا ينفجر من الغيض والحسرى ، أصافحه واتامله.

(اسمع يا سي علي المخطئ ،لا يحتج بخطئه .وأنت من بادرت به والجميع شاهد على ذلك ، ولديه أدله إن قدمت إلى المجلس التأديبي سيتم فصلك ، كان ينوي تبليغ الشرطة لولا توسلنا، المشكل ليس فيه بل في من سجلك وحاول تأليب المدير عليك).

(سي علي لا بد أن تترك الأمر لنا وتتنازل عن هذه العصبية).

(تفاهمت معهم أن نؤسس مجلس صلح).

كانت زوجتي تسترق السمع ، فأحجمت عن الكلام الليل كله.لأن الأمر يتعلق بالعمل والراتب وغضبي الشديد قد يتحول إلى عنف ضدها.

كان ولوجي رفقة مجلس الصلح إلى الشركة، كولوج ثعلب إلى خم الدجاج. كل الأبواب موصودة بقيت في الأمانة أنتظر.

(يا سي المدير أنت رجل طيب سمح ، كريم. قلبك كبير...وهذا اب لأربع صغار لا طاعم ولا كاسي لهم إلا هو ، وقطع الأرزاق كقطع الاعناق).

(لابد أن يفصل إتخذت قرارا بذلك)

(سيد المدير،صل على رسول الله (ص)، لو ترى أبناءه المساكين).

أقول في خاطري (هذه المؤسسة ليست ملكه حتى يتعنت هكذا).

قالها أكثر من مرة: (لا أحب ان أراه أمامي).

فلما أجهزوا عليه وقهروه بالتوسل والصلح رد بعصبية.

(لا اريد قطرة صلح منه، ولا أريده هنا في المؤسسة).

(إذن حوله الى مؤسسة أخرى).

(اتركو الامر لي).

(سي علي سمعت جيدا ، حين يصدر قرار تحويلك سنوافيك به لكن أرجوك لا تعد عشر أيام ،كافية ليسقط علي قرار التحويل كالصاعقة.

(الصحراء، المسافة بعيدة جدا ، ثم إنها منطقة نائية)

بعد أخذ ورد، حزمت أمتعتي، وأقنعت عائلتي بالسفر.

ربما أكثر من دفع الثمن ، كان عائلتي ،وتحقيقاتي مستمرة لمعرفة من سجل حديثي.

في المؤسسة الجديدة ،وصلتهم أخباري يوم الواقعة، فعاملوني معاملة الشجعان ربما ، لا يوجد في هذا الثلث الخالي أهل الوشاية ، وجنس الحرباء مثل من كنت معهم.

يخاطبني رئيس المصلحة : (انت ضحية ذلك الكذاب صاحب الخرافات).

أحجم عن الكلام ، واغير مجرى الحديث...لا يلدغ المرء من الجحر مرتين وإن لم يكن هناك تسجيل فللحيطان أذان.

رجوع

كرهت التطويق ،واشتهيت التشويق ، فغيرت البلاد وودعت العباد، وحملت الزاد والأزاد ، متوجها إلى حيث العمل والعبادة ، قاصدا المواطن التي تستدعي لزيارتها الإعادة، فحملت المتاع وسرت مع سيارات الباعة،حتى وصلت موطنا العياذ بالله منه، بلد من بلدان النيران ،حيث لا يحترم الجار الجيران ،ولصوصها تخالهم فئران، يسرقون المارة ويخدعون كبار الحارة ، ويعاكسون البنت البارة، واذا ابتسمت دنياهم عبرو القارة ،معظمهم يقولون للفواحش انت حبي، إلا ما رحم ربي.

إبتسمت لي الدنيا فسرت كالطاعم الكاسي ، تبتعد عني المأسي ولأهلي ناسي ، إذ عملت في كبار الشركات حارسا، ولعمالها دارسا ،واشتغل معي رجل يختال كالبدر في الحسن، يدعى : صالح ، واسع العينين متوسط الرجلين ،والكل يكرهونه، ولا يطيقونه ،لفشله وثقل نفسه وقلة مجالسته للناس.

فكبر في نفسي الحسد وتولاني العند، فشاركتهم الحقد ، دون أن أعرف الشخص ، و نسيت الحمد على نعمة ، و الكره للنقمة ،فخطيت خطوهم ،وامتطيت همهم ،و سمهم .

يشاء العلي الحكيم أن ألتقي به ،و ينزع علي ثوب الكلام القولا: (هل لا تعشيت، و تمشيت، و لما لا تنام ، يامن تستدعي مهنتك القيام، و لراحتك النظام، و لكسلك اللجام) فقلت:(لاترويض للنظام ،و لكن حال الجريض دون القريض) فأنهضني بقوة المداعبة ،و بهفوة الملاعبة ، تحدثنا فأبديت الاخلاق، و عن المعيشة إدعيت الاملاق ،و عن العبادة قلت :(تستدعي السباق، و للمراة النطاق، وباعد الحرام عن الأرزاق، و لاعلم إلا في الاوراق، إنما في الرأس العملاق ،فسكت قليلا، و قد أعجب بي كثيرا .

تمضي الأيام فوجدت فيها الكثير من لأفراح ،رغم أني كنت قريحا بالأقراح، فساندته صالحا و طالحا، إذ صرنا نتقاسم الخير و الشر، الحلو، و المر و جربني فنجحت ، و ملحني فملحت ، إختبرني ففلحت، و كالني فرجحت، صارلا يطمآن إلا إلي ، و حديثه كله علي ، أسراره له ولي، كان نعم الصديق ، وخير الرفيق.

جاء الصيف، فكان لا بد أن يفترق الصف، بعطلة سنوية، نستريح فيها ، نزور العوائل ، ونغور ضيوفا على الأهل والأحباب ، كان تعبا في وسطه أرق، وكلل.

قال:(لا كر ، ولا مفر ، ستزور معي ، وأعرفك على عائلتي).

قلت :(لي، نفس الرأي ، ورأيي، أسبق، نحن في الريف ، الهواء النظيف، والخير الرفيف).

قال:(أنا من سبقك،دع أهلك بعد زيارة أهلي ، وأعدك ،سأذهب معك، بعد طرق بابنا، وتفسح دارنا، فلي لك خير كثير).

كتمت كلمة خير ، رغبتي في إقتياده إلى بيتنا، والنظر إلى أهلنا، جمعنا أغرضنا، إشترينا هدايانا، ركبنا الحافلة مع القافلة ، تشق الطريق،تقطع الجبال والهضاب، منذ مدة لم نسافر بعيدا،

إلتفت إليه أسأله عن الخير الكثير ، الذي أركبني الأمر العسير.

قال:(عروسة ،لي أختين ، إختر إحداهن).

(ماذا ، ومن أخبرك أني سأتزوج ، هذا هو الخير الكثير).

(سترى وتغير رأيك).

زرتهم في دارهم ، كانت نعم العائلة ، بنتها فاتنة، والأخرى أفتن ،جميلة ، غضة ، طرية.

عاملتني أمهم معاملة الملوك، فأحسست من أول وهلة أني واحد من العائلة،وزاد لهفي للزواج والإستقرار دون إنتظار ولما سألني عن رأيي.

قلت :(ليس هناك خيار ، في يد عائلتي القرار، ستزوركم أمي)، لكن هناك نوع من الحزن العميق، يخيم على العائلة ، يغيرون مجرى الحديث في كل مرة، ويتكلفون بإبتسامة سرعان ما يبددها الألم، هذه الحسرى ليست موجودة عند صديقي فقط، قلت أسأله عن سرها وكنهها ، لكن ربما أنا أتوهم، فيتجشم من قولي.

الليل جليس الصالحين ، ورفيق الحالمين ، فيذكرهم الغائبين، تتأملني أمه فترة ، ثم تتأمله ، وتعيد الترحيب لليوم الثالث، وتسأل: (شبعت، ما يلزمك ، قل لا تخجل).

أحس وكأنها تعرفني ، منذ زمن طويل، لتعيد (نمت جيدا البارحة،إبقى معنا ، لا تذهب).

(تشبه ، سعيد إبني).

يقاطع أمه.

(كل صديق ترينه معي ، تشبهينه لسعيد رحمه الله،لا تزالين على ذكرى سعيد).

(من سعيد).

(سعيد أخو صالح التوأم).

يغير مجرى الحديث،إلى العمل الحثيث،وما جرى لنا من أهبة ، وصحبة في بلاد الغربة، يصطنع بين الفينة والأخرى ضحكة، بما له من حنكة، حتى انهيت الصلاة، والعبادة ،وضعت رأسي على الوسادة .

(صالح من يكون سعيد).

(قصة لا تشغل بالك بها).

(أحب أن اشغل بالي ، ولن يرتاح حالي حتى أعرف من يكون).

(سعيد أخي التوأم ،رحمه الله ، يوم المأتم، كان متوجها إلى المسجد ليصلي صلاة المغرب، وجدوه على حافة الطريق ميتا ، دهسته سيارة مجرم، حتى الأن أمره لم يعلم ، تحقيق الشرطة ، وجد أن الموت بسبب سيارة ، فر صاحبها إلى يومنا هذا).

(سامحني،حركت فيك ألما ، وحزنا).

وحاولت كما يفعل هو أن أقلب مجرى الحديث إلى أخر غير معلوم ، المهم سيبدد أحزانه، حتى يخطفنا النوم الى عالمه .

أصبحنا وأصبح الملك لله،شربنا القهوة ، وودعنا عائلته ،وداعا يخف من حدته أمل العودة ترافقه دعوات الوالدة .

(ربي حفظكم ، ويسهل لكم الطريق، قل لوالدتك تزورنا).

أحسست أني في بيتي ، والكل أهلي، وثقو بي وكأنهم ، يعرفونني منذ زمان، فيا ليت، يكون رد الجميل ، ولو بالقليل ،فيجد عندنا نفس ما وجدت عندهم ، لكن والدتي قاسية بعض الشيء عن والدته، وكذلك والدي ، ربما لكثرة أفرادها – ثمانية أبناء- مما يتطلب الكثير من الحزم والعزم القساوة ، حتى يسود الإنظباط ، داخل افرادها ،يارب وفقني لذلك.

يتطلب السفر إلى بيتنا أربع ساعات ،جلوس مضني شاق ، يحني الظهر والساق، فيحدث الإنعتاق من الإنحناء، عندما نتوقف في منتصف الرحلة، للفطور ، وشرب القهوة بسرعة ، ثم نواصل مسيرنا إلى وجهتنا، وغايتنا بيتنا.

للغائب شوق وحنين ، يفسره أول يوم من الأوبة ، وثانيه، ثم يقل ويخف حتى يجف ، ويطلب منك العودة لفتح أبواب الرزق ، كذالك كان حالي ، وقد رحب بصديقي في بيتنا أشد ترحيب ،ورتبت لإسعاده خير ترتيب،لكن مع الأيام بدأت ملاحم

السأم والضجر تلوح على أصداغه، فالحال عندنا غير الحال ،عندهم،وقد فاتحت أمي في موضوع أخته،ردت بالحرف الواحد :(أنت حر المهم لا تسكن ، معنا ، الضيق يخنقنا يوميا)، كان رد أمي بمثابة تسريح لا يتحمل أحد عواقبه، إلا أن الله فتاح رزاق ، سأضع بإذنه أول خطوة إلى باب الزوجية.

من بيتنا ، الى كسب قوتنا ،سنعود إلى غربتنا مرة ثانية ،نكون أول من يركب التاكسي مكاني بجانب السائق ، وصاحبي خلفي ،سنعبر مسقط رأسه، ثم منها إلى مبتغانا، وبئر أرزاقنا.

طالبنا السائق بالدفع المسبق لتكلفة السفر ، فكثيرا ما يلقى متاعب مع الزبائن بخصوصها ، تم ما أراد بعدما تعاتبنا أنا وصديقي حول من يدفعها، مما خلف في نفس السائق إرتياحا، حول طبيعة الزبائن الذين سيسافرون معه ، ليقلع على جو القصص والروايات ، ونكتشف عنده الأكاذيب بطابع الهزل ، ربما تعود على ذلك ليقض على روتين الطريق ، وقد تفاعل الكل معه ، بالضحك والقهقهات، والأسئلة المحرجة ، التي كان يجيب عنها بطريقة السخرية، سائق مرح جعلنا ننسى مشاق الطريق، وإندمج معنا كفرد من العائلة، يتوقف حيث نشاء لنشتري أغراضنا، ثم نواصل الرحلة ، حتى دنونا من مسقط رأس صاحبي ، فالتفت اليه وسط الفوضى العارمة.

(بلدك الحبيب، ياصديقي).

لينطق السائق دون شعور ، وسط الضحك الملهي.

(اللهم سامحنا ، السنة الماضية صدمت أحدهم في هذا المكان ،أتذكره وأتذكر أذان المغرب).

ليسكت بعدها سكوتا رهيبا ، بعد ان إكتشف زلة لسانه ،ويتدخل أحد الركاب.

(هذا فلم أخر، من الأفلام التي مثلتها).

يواصل طريقة السخرية ، محاولا ردم ماتفوه به، من باب اللاشعور، بينما تغيرلون صاحبي ، و ظل صامدا في ظل هذه الأجواء المرحة ، يخفي شيئا ، فأنا أعرفه.

وصلنا بعد طول سفر ،حملنا أغراضنا ، بينما صديقي يركز على ترقيم السيارة، حتى إذا ابتعدنا ، طلب قلم وورقة كتب عليها ذلك ، وأنا أستفسر عن ذلك حتى قال:

(ستأتي معي إلى مركز الشرطة لتشهد بذلك ، إنه قاتل أخي سعيد ، لقد تفوه بذلك دون أن يشعر ، هو نفسه المكان الذي صدم فيه ، وفي اثناء توقيت صلاة المغرب ، كما قال محضر الشرطة).

(فعلا ، إنه من دهس سعيد).

باعنا عنبنا

كنت وحيد والديه ،منعما مدللا ،في أحضانهم مجللا ،رحل والدي بعد أن نمى جسمي واشتد عظمي، وبدأ فهمي للحياة وأمورها واضحا جليا ،أما أمي فقد خطفها هاذم اللذات، ومفرق الجماعات بعد مرض عضال ،قتل فينا الجمال والأمال ،لكنها غادرت قريرة العين مطمئنة ، لأن في عشي أربع أبناء وزوجة صالحة تسهر على رعايتي،وحسن طاعتي.

وقد بقي من ذكراها رحمها الله، بيتا وجيرانا ، أكلت معهم لحما وزيتا ، ووسط البيت فناء ومعمورة، وللجيران إبنا تخشاه الدماء المهدورة ،يدعى "الوليد"،فهو في واد وإسمه في واد أخر ،إسمه اشرف وأنقى منه ،وفي الحي زخرفت الأشجار كل فناء ومقصورة ، وقد غطت ساحة الدار كرمة ،صنعت له سقفا أخضرا خشية من الشمس

أو حرمة ، ووهب لي الواسع بيتا واسعا أخرفي حياتها ، فرحلت وصغاري تاركا البيت أمام أعين جاري ولم أبعد عنه إلا بضعة أمتاري ، ولا يطول غيابي عنه إلا وتزيد ناري، لأن فيه ذكرياتي وأسراري .

حل زمن النضج ، والعهد الفج ،فمنحت لي الكرمة عنبا الحبة منه تشبع بطنا جائعا، وتروي حلقا عطشا ، لونها يميل إلى الإحمرار ، وقد علقت بعرق يسير إلى الإخضرارشكله دائري ،والعنقود يتدرج سائري ، يعطيك شكلا مهندسا أو سرا مندسا ،وقد غرت من شكله وسط الإخضرار، كأنه في مقام الإنتظار، أو يطلب القرار،هل أتركه يتمتع ، أو يعيش فيترعرع، ولكن لكل قوة هفوة ،ولكل جواد كبوة، وما بعد الشباب إلا الهرم، ويحل يوم القسم ،فقلت أتركه حتى يرتفع السعر ،لينخفض العسر ويصعد اليسر من شراءه وطلبه.

ذات يوم عدت منهكا من العمل ، منفك الأمل ، أخذت قسما من الراحة ، وبسطت الإباحة للنوم،فأخذت الأهبة للمقيل ، وسط القال والقيل ،إذ ابنائي يصرخون ويجرون ويلعبون ويمرحون، فأزعجوا نومي، وزادو همي ،فرأيت أن أطرق فناء أمي فالحر يلسعني، ولو كنت حديدا لليني،هناك أعرض نفسي على النوم فيأتيني دون لوم.

وضعت لنفسي فرشا يقابل العناقيد فاصبح عرسا، وضعت رأسي ونضرت إلى السماء، فكان الفراش رمسي، والقاعد فيه يبات ويمسي.أمام عيني عنقود عظم مقامه كأنه ملك قوي نظامه، فأخذ يسحر المقل ،وإذ بهما تصغران ، تغلقان ثم تغيبان وبعدمدة تفتحان، فلم أجد العنقود قلت ربما من التعب المعقود، أومن الأسى المعهود،فأخذت مرادي على الجنب الأخر، ونمت كأني ذقت الأوج والأحر، فغبت غيبة الصريع، ومن يتأملني يخالني ضريح الضريع ،أو مثل أهل الكهف في نومهم.

لما نهضت وجدت الأمر المريع،كل العناقيد قد إختفت ،وحولي المخاوف قد إلتفت، فالجن هي من حفت ،وهذه أثارها إقتفت، فاين الخضرة التي زخرفت، وفي لمح البصر إختفت، فخرجت يذعرني الذعر وحالي متحلك، وجسمي مرتبك، وجهي اسود يحتبك، غلقت الباب مهرولا ،لا أدري أين أذهب مترجلا، حتى جلست في مقهى ونادى صاحبها :(مذا تشرب)قلت:(عنب)قال : (هذا شراب أم للخمر لقب ، هل تريد بهذا عيبا وندب) نظرت إليه شرح لي ما قلت وذهب ،ناديت عليه:(ستعذرني إن عرفت السبب)، وحكيت ما كان وكتب ، لم يصدقني وذهب، كعادته.

كنت طول المساء غائب البال،أدعي المحال ، لا أسمع السلام ولا الكلام، فيصرخ في وجهي :(رد السلام يا أبله وأجب عن السؤال يا أوله).

دخلت بيتي ، وزوجتي تسألني ، تنقلني بمواضيعها عن هذا الموضوع ، لكن أينسى العجب والعيش الرحب، أحاول أن أداري ذاك فاقول (ياعنب يوجد سواك وغيرك).

وفي الليل صليت العشاء وجلست أمام المائدة ،لأنسى تلك الحادثة البائدة، ولما تعشيت وضع أمامي صحن عنب أحمر،صحن ينام به عنقود يحمل نفس التموجات، والتدرجات التي يحملها عنقودي:(نعم إنه هو لقد تأملته كثيرا) سألت زوجتي من أين لك العنب ؟قالت :(إشترى إبنك الأحب صندوقا بثمن بخس).

ناديته وسألته فقال :(باع لي الوليد) قلت :(إبن الجيران الذي يخشاه الوعيد) قال: (وعدني البارحة على أن ياتيني به اليوم).

قلت: (سبحان الله واعد بالحرام وصدق بالملام، لم يخش نومي، ولم ينتظر لؤمي ومادام واعد فقد وفى ،حتى وإن كانت هناك مصاعب ومتاعب)

(يابني قد اشتريت عنبكم وخدعكم ووالدكم في عرض داركم)

سكتت هنيهة وقلت في خاطري: (دريت لما لم تصدق أمي علي العنب يوما، حصاده كان للوليد كوما).

نسبة الغياب صفر

أحسن خلاصة تعبر عن الوضع السيءالذي نعيشه، هي ماقاله جاري سي العربي:

(الله قهار فوق عباده) ونحن البشر ككومة حلزون في كيس كبير، منا من يحاول تسلقه للخروج ،ومنا من يدوس بالأقدام على بعضه البعض ، ومنا من تدفنه الأرجل ثم يعقب بقهقهات (هههههه).

يتحدث عن السياسة كالعارف الداري بالأمور، وهو لا يعرف عن الأوضاع شيئا،ويتحدث عن الطب وعلم الإجتماع ،من باب الباحث المحلل الواثق من نفسه،لكن كل إستنتاجاته وتجاربه من باب القيل والقال،فعندما ينتصر لخلاصته ،يطلق صفارة قهقهته وهأهأته التي تجوب الأرجاء.

يمسك إبريق الشاي ويملء فنجاني فأمنعه، وأتوسل إليه :

(أرجوك ، لقد إكتفيت،اللهم إجعله هذا البيت عامرا)

(أمين يارب العالمين .أسكت واشرب، كل خبزالشعير ، أنتم أهل المدينة ، تحبون أكلات البادية)

يغدقني بكرمه،لأرغم بطني على تقبل المزيد ، رغم أني عاهدتها ،على الريجيم ، لكن سامحها الله زوجتي حرمتني ، من هذه الأكلات الجميلة ، حتى الخبز أشتريه،الكسكس لايعرف إسمه مطبخي، كل شيء جاهز ، هكذا نعيش في المدينة ، أنا الأن أشبع رغبة دفينة في نفسي.

ينادي زوجته: (يا إمرأة تعالي).

لايناديها بإسمها رغم العشرة الطويلة بينهما ، ورغم أنها بنت خالي فأنا أعرف إسمها.

(خذي ، إملئي البريق،وإلا سيتحدث عنا ابن خالك في المدينة)

تضحك هي الأخرى من كلامه ، أحاول إضافة ضحكتي إلى ضحكتهم حتى يتجمل ويتنسق الأمر، فكما قيل:(دارهم ما دمت في دارهم).

نجلس وسط فناء بيته الرحب ، هم لا يستقبلون الضيوف في القاعات إلا أيام البرد، وعادة ، ما يستقبلوننا بزربية تحت الشجرة المقابلة للمنزل ، حتى تتمتع بمنظر الطبيعة الخلاب لكن هذه المرة نتوسط الفناء وتتوسطنا طاولة الشاي والخبز وحليب الماعز،وتحيط بنا الكراكيب ، بالإضافة إلى براميل المازوت الحديدية الفارغة، ربما يجمع فيها الماء،فهي تحمل أكثر من مائة لتر.

البادية سحر سرمدي ،ندي ، نقي ، لا يغيب عنهم الكرم ومعاني النبل ، وشوقهم لكل ما هو متحضر ، يشفع وجودي عندهم ،ويبرر هروبي من زحمة المدينة ، وفوضاها.

بينما يغمرني بقصصه الخرافية ،وتحاليله السياسية مصحوبات بالأوهام واللامعقول.

يخرج ولده الصغير مسرعا ،كمن فر من كمين ، ويدخل في وسط برميل من البراميل الفارغة التي تحيط بنا ويغطيه من أعلى ، ليخبأ نفسه جيدا ربما يلعب لعبة علي بابا واللصوص الأربعين.

يقاطعني والده(دعك منه).

(قد يختنق داخل البرميل).

يدخل طفلان أصلعان ضحايا حلاقة متوهورة ،ببنية قوية لا يبتسمان، ذئبان أشرسان ، لم يسلمو على أحد ، بدأو يفتشون البيت تفتيشا ولا أحد يعير وجودهم إهتماماحتى الأم في المطبخ ، رغم انهم فتشوه، ومسحوه بنظراتهم الثاقبة وخطواتهم المتسارعة .

(من هؤلاء ، مذا يصنعون، ألم ترهم)

(دعك منهم يارجل ، سوف ينصرفون).

ينقبون داخل البراميل،فيهجمون على إبن صاحب الدار ،يحملانه أحد من رأسه والأخرمن رجله ، وهو يبكي ، يستغيث وأحاول التدخل وأصيح على جليسي.

(إنهم يخطفون إبنك ، انهم يخطفون إبنك).

يمسك يدي بقوة ويعيدني إلى الحصير.

(نسميهم نحن القناديز ، إنهم طلبة شيخ الكتاب، يدخلون كل بيوت القرية ، ويجلبون كل من يتغيب ، ليعاقبهم الشيخ شر عقاب ،لقد تغيب في الصباح ولم يستمع إلي ، دعه يأخذ جزائه).

تجلب صاحبة المنزل إبريق الشاي مبتسمة.

(سوف يجلده الشيخ ،سيربيه بالعصى).

قلت في نفسي:

(ما هذه العائلة المجنونة؟ والقرية الغريبة؟).

(الشيخ رجل ،ولا نعم الرجال ، ولا طالب قرأن يتغيب عنه ، كان إبني في المدرسة لا يحفظ شيئا ، ولا يعي شيئا ، أما في رعاية الشيخ فقد حفظ أكثر من خمسة عشر حزب).

(أي رعاية هذه ، قلت سيجلد طفلا صغير).

(دلعكم لأطفالكم ، أنتم أهل المدن جعل الأبناء ، لايقوون على مجابهة هموم الحياة).

(أين يقع الكتاب ، فيما بعد سأزور هذا الشيخ).

(بالمسجد ، الوحيد في القرية ، الشيخ هو من يصلي بنا أغلب الصلوات).

تشوقت كثيرا الى هذه الشخصية ، التي تشتغل بنوع من التلقين أكل الدهر منه وشرب ،لكن السيادة التي يتمتع بها ،والنتائج الممزوجة بالعطاء ، كما حدثوني ، قد تأنب فضولي إن لم أزره.

(هيا خذني إليه).

(يارجل ، أكمل كأسك).

(في فرصة أخرى ، أرجوك).

(إصبر، فقط دقيقة ، ستجهز لك بعض الأغراض للأولاد).

صبري ينفذ ،وإنتظاري سئم من كلمة إصبر، يعتصر القلب كما تعتصر المرأة الغسيل ،لو كان إبني من خطف ،ماراقت لي شربة ماء.

وضعت أغراضي في السيارة ، وتوجهنا مشيا الى كتاب القرية ، إذلا يبعد كثيرا عن بيته، فالمسافة تطويها الزيادة في اصوات الطلبة ، لا الخطوات المتسارعة ،فتسمع لهم من بعيد دوي كصوت النحل.

(هاهو شيخنا وولي نعمتنا، سلم عليه).

أرسلت بصري يتفحص المكان ،الذي ضم إليه مجموعة كبيرة من الأطفال ، يتوسطهم الشيخ ذي البنية العظيمة والعصى الطويلة ،وابن صاحبنا ، يقف في ركن معتم ، يجمع يديه فوق رأسه،ووجهه محمر من شدة الألم ، بينما العبرات تشق الوجنتين لتنسكب على قميصه المتسخ،ومازاد الطينة بلة ، حضور الولي ،ولم يستنجد الإبن به، بل بقي على حاله بلباس الحزن والخوف،بينما أمطر الاب الشيخ بهالة من الشكر والتهليلات ،نظير القمع والقسوة التي يمارسها على إبنه، الذي كما

قال صار لا يخاف منه، ولم تعد له سلطة عليه ، لولا أن بعث الله الشيخ ينجدهم ويقوم سلوكات أبنائهم، تفحصت المكان بأكمله والشيخ يصافحني ، ويطبق على أصابعي بقبضته الشديدة ترافقها إبتسامة وترحيب، وينطق:

(أجد ضيفك غير راض علينا)

(لا ياسيدي، أنا معجب بهذه السلطة والتحكم المحكم، الغير موجود عندنا في المدن ،لكن سؤالي : هل عندك غياب في صفوف الطلبة).

(هههه ، في خمس شهور الأخيرة نسبة الغياب صفر).

سوسو

هموم ثقال كأنها الجبال ،يعيش على قممها شجن يمتطيه المحال، وفي اثناء هذا المحال نركب نحن الأهوال، مجبرين لنعكربها راحة البال ....وأين راحة البال؟

ليل داج، وظلام دامس ، يغازلان بردا قارص ،وعمر جالس ، كغيره من الجلوس، بجسد نحيل ، ورجلين هامدين متصلبين، يحمل من الهموم الكثير، تتوسطنا شعلة نار ، نعذبها بالقساوة، تمتد إليها أظافر البرد لتجس أنفاسها،لكنها تأبى الموت وتصارع بإلتهامها الحطب،فإذا طال لسانها مددنا الأيدي لتلفحها وتزيل البرد عنها، كذلك كانت هي الأخرى بين عذاب الاشتعال، ومتعة الاستماع إلى قصصنا.

(عمر جاء دورك إحكي حكايتك).

سكوت كأنه جهنم، تليه عطسة أفلوانزا أحد الحاضرين.

كعادتي، فذ بسيط، واسع الصبر، مرتاح البال، مغتبط مسرور، بما قدمه الله لي، أخالل مكنسة وعربة لا أفارقهما إلا في الليل ، أنظف بالأولى وأجمع النفايات بالثانية ، وقد اعتادت علي الأزقة لأنزع عن كاهلها أدناسا خلفها العباد، فتعود إلى ريعان شبابها، وحسن بهائها ، لتتشظى ليلا بلا خجل ولا قيود، و تعلن للعلن بطولتي وحربي ضد كل ماهو سيء وأسوء، يجمعنا حب سرمدي وعشرة طويلة، أنكر المنكر وأعظم المعروف وقد حدث أن افتقدتني ، مرة بتهمة نسبت إلي جورا، وزورا وبهتانا ،جعلتني أحط الرحال في السجن لكن سرعان ما ظهرت برائتي، بفضل العدالة الإلهية أولا، والعدالة البشرية ثانيا، أعادتني إلى أحضانها ،فاصبحت أتزعزع وأخاف من كل شيء.

في يوم من أيام المدينة الهوجاء، التي غرقت في التخوم،والهموم،التي تهوم، ثم تحوم حول شارعي ،أجلس بعد أن تعودت على افتراش الرصيف، حتى تقف سيارة شرطة ، تكبل حركة عربتي ، ينزل منها ثلاثة أشخاص من غير السائق، فأسمع على لسان أحدهم:

(لدينا لك إستدعاء من قسم الشرطة ، مطلوب القبض عليك).

كان ذكرها سهلا على لسان الناطق ،صعبا على لسان السامع، بل وجودي سناء المرسل، ونوره.

(سأذهب إلى المنزل لأغير ملابسي).

(لن تفعل شيئا ، ولا حتى قطرة ماء تطلبها).

(فقط أعيد العربة ،إلى المرأب فهي عهدة في ذمتي).

(لا أبدا ، يامتهم تفضل معنا).

كانت قلوبهم قاسيةجدا،ومسكهم لي محكم ، فليس هناك أي نطاق للتحرك ،أو التصرف في شئ، غير أن صديقي لمح الأمر من بعيد ليهرول نحونا ، فأوصيه بالعربة والمكنسة خيرا، ثم إبلاغ أهلي بأمري ، حتى يسكن قلق عائلتي إن طال غيابي، توضع الأصفاد في يداي ، فتكبلهما، ويترقرق الدمع في جفوني من الأسى لتسقط احداهن على خدي، فيكتشف الشرطي أمرها ولا يعيره إهتماما، يخيم علي حزن بطعم الكأبة، فينثر على جسمي الإعياء والتعب،وماهي إلا لحظات قليلة حتى أجد نفسي في مكتب مع ضابط ، أطالبه بشيء من الريث والأناة ، ربما هناك خطأ ما، مهما كان فأنا بريء.

(كل هذا الكلام لا يعينك هنا ولا يعنيني، لسنا نحن من نطلبك ، بل سنرحلك إلى قسم أخر، هناك ستعرف قضيتك ، وقع هنا...).

تم ترحيلي تحت حراسة نفس الأشخاص ، إلى قسم أخر ،لأوضع في زنزانة مع أشخاص غرباء ، يستفسرون عن سبب توقيفي، وأنا أقف أمامهم كصورة مجسدة لليأس، لا تعلم شيئا عن مصيرها،لأغوص في التفكير والتوهان ، وقد سقط في أذني شتائم بذيئة ومسترسلة ، لم أعرها إنتباها، ولم تكد تكتمل عقارب الساعة حتى أيقظ شرودي نداء الشرطي،يطلب مني مرافقته،وما إن فتح باب المكتب الموجه إليه حتى ، وجدت أخي وابن عمي، مستائين من حالي يخففون عني همومي ، وأكثر من ذلك الضابط الواقف هو ابن الجيران، الذي يسلم علي يوميا اثناء ذهابه للعمل.

وأخيرا أتيح لي أحد ،أستنجد به، ليفسر لي وجودي هنا.

يسألني أخي:

(عمر، هل عرفت الضابط).

(نعم أعرفه ويعرفني،ومع ذلك فهو يحب أهله وجيرانه).

ليخبرني الأتي:

(ملفك قرأته جيدا ، هناك فتاة تم الإعتداء عليها وسرقتها،تقدمت ببلاغ عندنا ، وتعرفت عليك من خلال صور المجرمين ،فأنت مسبوق قضائيا، لم أكن على دراية بأمرك لأني لست أنا من حقق مع الفتاة ، إنما زميلي في المصلحة القضائية ،من دواعي سروري إطلاق سراحك ،لكن الإجراءات القانونية أكبر مني،ستبات عندنا وغدا يتم عرضك أمام وكيل الجمهورية، نحن جد متأسفون).

(لا مشكلة ، المهم أن أتخلص من هذه المعضلة).

(أولا أخبرني أين كنت يوم كذا وكذا، على الساعة العاشرة صباحا).

(طبعا كنت في عملي، أنا لا أتغيب أبدا).

يلتفت إلى أخي:

(ستوافيني بشهادة إدارية من مقر عمله، تثبت أقواله، قبل يوم غد).

(سيكون ذلك بإذن الله).

فلما تبلج الصبح، وبانت الشمس بسناها من تلك النافذة الصغيرة التي تعلو ،الزنزانة،كان دوي رجال الشرطة ، يسمع من بعيد، بينما كان جسمي مهشما من الإضطراب وسوء النوم،وعدم راحته، فلم أكن نائما ، ولم أكن صاحيا ، ولم أكن من الحالمين ، ولم يتلقفني النعاس كما اعتاد في مضجعي ،ولم يكلف نفسه فاتح الزنزانة ، عناء الايقاظ لأني كنت جاهزا ، بمقل شاخصة، شاحبة، وسيشغل نفسه بوضع الأصفاد للمرة الثانية .

يقتادني إلى أخر مكتب في الرواق، حيث يتربع الضابط ابن الجيران ، يحاور فنجان قهوة وسيجارة ، يقف واجفا ، ويأمرهم بفك الأصفاد ، ليستقبلني باسما باسطا يديه بكأس القهوة، يخفف عني همومي ولن أنسى معروفه ما حييت ، لون من الوان الكرم والتواضع ،إذ لست أعلم تعليلا، أو تأويلا لما يحدث لي غير قوله:

(تحدث مثل هذه الأخطاء، لا تقلق سوف أكون معك، إشرب قهوتك).

أشرب القهوة متثاقلا ، متثائبا، أستنجد بيقظة فاترة بطيئة، يرمقني بين الفينة والأخرى:

(تشجع ،لاتخف،أنا متأكد من برائتك).

(كيف يحلو طعمها ياسيدي ،وأنا مظلوم).

(لم تسألني كيف تأكدت من برائتك)

(كيف ذلك؟).

(نفس التوقيت الذي تمت فيه الجريمة،كنت مع دورية في شارعك ورأيتك منهك القوى... ، بالأمس سألت السائق هو أيضا أكد ذلك، والجريمة تمت أبعد بكيلومترات ، فلا يعقل أن تتواجد هنا وهناك)

أمد نفسي لهذه الكلمات و اللحظات لأستسلم لها، وسأخذ نفسا عميقا على هذا الكرسي المريح، بينما ينتابني ،خوف شديد وكره كبير للدنيا المريرة ،فلقلة ايماني كنت أحملها ، أسباب تعاستي وفشلي .

أنهيت رشف قهوتي بصعوبة كبيرة ، ليحمل ملفا أصفر ، وينادي على مرافقيه ، يطالبني معهم بالتوجه إلى المحكمة، لم تكن الإجراءات والتصرفات قاسية مثل يوم أمس ، ليست هناك أصفاد ولا نظرات قاسية ، بل هناك عطف وحنان ،ومؤازرة لحالي كأنما الكل متأكد من برائتي.

في بهو المحكمة وجدت أخي وأهلي ، ينتظرون قدومي، يصافحني رجل بمئزر أسود قائلا:

(برائتك على يدي بحول الله)

سالت أخي من يكون قال:

(محاميك لقد أوكلناه لك، وسأبشرك ،الفتاة التي إتهمتك لم تحضر بعد ، فقد قمت بجس نبض المكان).

لم يكد ينهي كلامه، حتى طلب منا الدخول للمثول أمام وكيل الجمهورية .

جف حلقي، وصمت كلماتي أمام الحضور، حتى شل ذهني وتفكيري، وقد تبادل جلسائي النظرات المشدوهة الى سكوتي المرعب،وينبغي علي أن أخفي ذهولي ، فأنا المتهم ولا بد أن أقوى للدفاع عن نفسي.

كان الضابط على يميني، والمحامي جالس في كرسي يقابل الوكيل الذي أمطرني بمجموعة من الأسئلة ، لا أقوى على ردها ليرد المحامي، ثم يسأل للمرة الثانية :

(ياسيادة الضابط أين الضحية، كان يجب أن تتعرف عليه في القسم قبل أن يعرض علينا).

(سيدي وجهنا إليها إستدعاء ولم تحضر).

كأن الوكيل كان متأكد من برائتي ،امام المحامي البارع، الذي شاركه في إستنتاجاته، بأن الأدلة غير كافية وهنا حاول الضابط التدخل.

(سيدي أريد أن أقول كلمة).

ليقاطعه قائلا:

(إطمئنوا ، سأطلق سراحه بضمان مهنته ، فأنا أكن لها التقدير والإحترام ، إلى غاية حضور الضحية، إحرص على حضورها أمامي).

وأسمعه يملي على كاتبه:

(نحن وكيل الجمهورية :فلان الفلاني،أمرنا بإطلاق سراح : فلان الفلاني بضمان عنوانه ومهنته، على أن يمتثل أمامنا بتاريخ الخامس عشر من كذا وكذا).

لم يكد يكمل كتابته حتى انتابني سرور وفرح مر ، لكن الحمد لله، يعني أن هناك مهلة خمسة عشر يوما ،أنقب فيها عن برائتي التي أشتري بها حريتي، يتم الإفراج عني بينما الضابط يربت على كتفي مرددا:

(قلت لك تحدث مثل هذه الأخطاء).

تتسارع الخطى إلى منزلي ،لأرتاح وأستسلم للنوم لولا زيارات الجيران والأهل ، وكثرة السؤال والجواب، الذي حال دون ذلك، فهذا شيء مألوف ، فرغم تعبي ألتمس البقاء

لمن يريد مغادرة مجلس الإطمئنان،وسط أقداح الشاي ، هممت أن أدعو إمام الحي ، أو أبحث عنه ،حتى طلب الإذن بالدخول مع المشايخ ،يرافقهم والد الضابط.

(ياعمر قدر الله وماشاء كان).

(أخبرني إبني بالقصة كاملة ،فأيقضت في نفسي حسرى مكتومة ، حالك حال والدك ، رحمه الله لا حظ له هو أيضا، لكن تأكد سنقف معك في وجه هذه الظروف الباهرة ، القاهرة، هل لديك عنوان الفتاة ؟).

(نسيت أن أسأل عنه إبنك محمد في مقر الشرطة).

(لا تكلف نفسك عناء ذلك ، فقط ارتح قليلا، سأتصل بمحمد يجلبه معه).

ثم يستدير مخاطبا الإمام:

(متى نجهز عليهم ياشيخ؟).

(أرى أن يوم الجمعة ،بعد الصلاة يكون مناسبا ، لأنها ساعة يخلد فيها الناس إلى بيوتهم).

(ما رأيك يا سي عمر؟).

(الرأي رأيكم ، والمشورة مشورتكم ، ولا أرى للغريق رأيا على منقذه غير الشكر والإمتنان.

كانت السيارات جاهزة ،أمام المسجد بعد صلاة الجمعة ، واللحى البيضاء هزز بيد الريح الخافتة،والمسك بعبق العطور يفوح داخل السيارات ، تنتظر الإمام الذي سيكون أخر القادمين، طبعا سينهي مراسيم إعتاد عليها بعد أداء الصلاة، هذا الجوالجميل من التكاتف، بدد إرتباكي تماما، حتى جاء وتربع على مكانه في مقدمة السيارة ، يحمل في يده سبحة ، ويستدير إلي مازحا.

(سي عمر أنت خائف).

(لا يا شيخ فأنا على أحسن حال منذ رأيتكم).

أقلعت السيارتان تشقان الطريق إلى عنوان الفتاة، تتوقف الأولى في كل مرة تجد فيها شخصا على قارعة الطريق تسأله عن العنوان ، ونحن نتبعها كالظل ،حتى أصبحت الطريق وعرة، وشاقة على السيارات وقد اضطربت بين اليسر والعسر ، وبين الشدة واللين.

يتفوه فضيلته:

(سي عمر، أظن أن السيدة المجهولة تسكن في قرية نائية، لكن لا تقلق في يدنا المساء كله ، حتى وإن إقتضى الأمر أن نصلي في الطريق).

تسير السيارات ، حيث يقل وجود البشر ، ونحن نلقي النظر بين الحين والأخر،على هذه القرى النائية، بينما فضيلته يخلط الدعابة بالجد، ويمزج الترفيه بالنصح إمتزاجا ، لقد أسرف في الكلام ، وكأنه لم يلق خطبة الجمعة ، ولم يسكت حتى صادفنا رجلا يقود قطيعه، دلنا العنوان ، وحذرنا أن لا نقترب من منزل صاحبه ، بل نكتفي بمناداته من بعيد، فما هي إلا لحظات حتى كنا قرب منزل قروي ولواحقه، من إصطبل ، وزريبة ومرأب، تنثال النظرات تلمح هذا الشخص العتيد ، بالأكتاف المفتولة ،ووجه أحمر منتفخ، تحوط به الكلاب ، وعلى ظهره بندقية صيد، ينزل الجمع وناديه من بعيد ، فيطرد كلابه، ويدنو منا بحذر معه التأني ، فلا سلم ولا كلم ، رغم أننا سبقناه في ذلك.

(من أنتم ، ومذا تريدون)

(نبحث عن عائلة سعاد.....).

(سعاد إبنتي، وبأي صفة تبحثون عنها).

تقدم فضيلته ،معرفا بالجميع ، راويا له القصة من بدايتها حتى نهايتها ،بطريقة المودة والتسامح والصلح ، فبدى من الوهلة الأولى راضيا متفهما،ولما طلب منه أن تراني الفتاة وتتأكد إذ كنت أنا أم لا، إنقلب وأصبح عابسا ، مظلما ، ساخطا، متجهما، وصاح غاضبا:

(ياحمقى بناتنا لا تنكشف على الغرباء).

مع أننا ألححنا عليه،أن تراني من بعيد ، أو من وراء حجاب ، لم يحاول أن يفهم علينا شيئا، فهو قديم أصولي، نقي الطراز ، من بيت العفة والشرف والطهارة ، ونحن محدثون، من أنجس خلق الله - في نظره - ، ما علينا إلا أن ننكس رؤوسنا في الأرض، جمعنا كل توسلات الدنيا، بل كدنا نقبل الأرض بين رجليه، هرقل زمانه، وسيد مكانه، هو في عقر داره ، ونحن لا حول ولا قوة لنا إلا رضاه علينا، شعرنا على إثرها بالإهانة تجتاح كياننا، وقد أنفقنا مساءا طويلا ، ثقيلا، نحاول الوصول إلى عطفه، ونهدئ من روعه ،لكن دون جدوى، وقد ختم مجهوداتنا ، حين مد يده إلى بندقيته ، وأطلق عيارا في السماء، قائلا:

(سأعد من واحد إلى عشرة، من أجده هنا سأقتله).

تسارعت الخطوات، تمتطي ظهور السيارات ، لتقلع هي الأخرى إقلاعا مروعا فيه الكثير من الخوف، ولم تهدأ دقات قلبها حتى ابتعدنا واختفى منزله اللعين عن الأنظار،بينما يردد فضيلته:

(يا لقساوة البشر، يالقساوة البشر، سامحني يا ولدي عمر كان في نيتي إصلاح الأمر لكن...).

عدنا أدراجنا نجر ذيول الحسرى والهزيمة، وعدت إلى الضابط أزف اليه خيوط الإنكسار وأتلو عليه ، ما لاقيناه ورأيناه ، فبدت عليه معالم الحيرة والإستغراب :

(كيف لا تنكشف على غرباء ،وهي تدرس في الجامعة، إذن نحن من سنستدعيها).

(أرجوك ، إعطيني عنوانها في الجامعة سأذهب إليها).

(إسمها سعاد....وتدرس السنة الثالثة في معهد علم.....).

في معهد من معاهد الجامعة سألت الطالبات عن هذا الإسم قلن لي :(تبحث عن سوسو ؟).

(هذا فوجها ستأتي بعد هنيهة)

قلت :(لا إنها من بنات القرى ، ليست مدللة الإسم).

لم يهضم فكري هذا الإسم أبدا.

(أنظر ، هاهي قادمة).

قالت:(رأيتك البارحة عن بعد ، وحفظت ملامحك في لحظة استرداد لذاكرتي، تيقنت أنك لست أنت الفاعل، فقط بينك وبينه شبه قليل ، لكن سأساعدك لا تخف).

لم أتكلم قط كنت كمن سمر في الأرض، بل كمن استيقظ من حلم غريب، ليت كل هذا يمض في طرفة عين، تمنيت لو أن السماء انطبقت علي ، بدى صديقي هو الأخر يتنفس أنفاس الحيرة، فمن أمطرتني بالشقاء فتاة بتحليقة رجل، وقد إحتل جسمها كل أنواع المجملات ، والزيوت والمواد الصناعية والكيماوية، كنت في عالمي أعشق مكنستي ، نتسلى ونغازل بعضنا البعض فيا أيها اللص أعذارك قبلت، فهذه هي الفتاة التي أمطرتني بعوادي العلل، قد غلبني اليأس والقنوط حين تذكرت مقولة والدها: (بناتنا لا تنكشف على غرباء)، مما جعلني أعيد طرح السؤال بطريقة الإستغراب:

(هل أنت فعلا سعاد....؟).

تضحك حتى ترتفع الشفى، لتلامس القرط المربوط بجهة أنفها اليمنى، إنها هي رغم كل الصعاب والعقاب لتقول:

(لا أضحك من سؤالك ، إنما من منظرك أمام والدي ، هو يعيش في القرن الرابع عشر و أنت في القرن الذي يليه ، لو سألت عن رقم هاتفي ، عند زميلاتي في الجامعة ، لوفرت على نفسك كل تلك المشاق).

ثم انسلت من وسط زميلاتها وتوجهت ، إلى جمع ذكور يشتغل على القهقهة والسخرية.

وجاء اليوم الموعود، الذي كنت فيه على الأعصاب، في هذا البهو الضيق الذي يسمونه قاعة الإنتظار، أترقب السكون والحركة ، واتفحص الحضور ،أنتظر قدوم منقذتي ملاك الرحمة والميسرة، وكدت أقطع الأمال لولا أن همس الضابط في أذني:

(الحمد لله أن الضحية قد حضرت).

(مذا ، أين هي؟).

(هناك صاحبة الجلباب الأسود).

أرسلت المقل تستطلع عن صاحبة الجلباب الأسود ،فعلا إنها هي لقد عرفتها من تصرفاتها ، جلباب شديد الحياء لا يكشف إلا العينين ،لكن أين كان كل هذا الحياء ، في الأيام الماضية ،كادت تثور حفيظتي، لكن تغير هيئتها تغير جسمها ، المهم انها حضرت.

تمتثل معي أمامهم ، وتنزع عنها ذلك النقاب الطويل ، الذي حاولت به إخفاء الوجه الحقيقي لكن...يطالبها الوكيل بالتركيز في وجهي للتأكد من غير وجود الصور ، فتأكد له بأني لست الفاعل جزما قاطعا ، ليلتفت إليها الوكيل ويغرقها ، بوابل الحزم والإستفهام، يجعلها مضطربة النفس ، مشوشة الأفكار، يأزره في ذلك المحامي

البارع ،فلم تكن ملامحها توحي ، بأنها ضحية إعتداء وسرقة ، خصوصا وأنه من جملة المسروقات سلسلة ذهبية بالشيء الفلاني، تعود لإحدى زميلاتها، وإن واصل المحامي جس نبضها، ستتحول من ضحية إلى متهمة لولا تدخل الوكيل بقوله:

(بعد أن تقسمين ، ستجيبين عن سؤال واحد فقط ، وبمنتهى الصراحة: هل فعلا تم الإعتداء عليك وسرقتك؟).

لم ترتسم على وجنتيها إي معالم للحيرة كما كانت من قبل ، بل أكدت ذلك بمنتهى الشجاعة، لكن الوكيل كان على علم بغياهب التحقيق والشخصيات ، وإكتشاف الصراحة من الكذب، ليفاجئها بطلب كان شمسا للحقيقة كلها .

(ستعيدين مشهد الإعتداء كما تم بالتفصيل الممل ،وخصوصا كيفية إنتزاع السلسلة من رقبتك).

راحت تعيد فصول قصة خرافية ،لا يصدق مشاهدها طفل صغير ، تمزج حركاتها بتمثيل مزيف، ليوقفها الوكيل، وأسمع صوته حازما جازما يملي كما إعتاد على كاتبه:

(يخلى سبيل: عمر.....بصفة ضحية ، على أن يتم الإحتفاظ ب: سعاد.... اربع أيام على ذمة التحقيق ....).

فعلا لقد تحولت من متهم إلى ضحية.

لم يراودني إحساس الإنتصار ولا نشوة الحرية ،ولم أكن مضطرا لأن أبرئ نفسي أمامهم،وقد سألت نفسي أكثر من مرة ، مذا سيقول والدها المخدوع؟

أشواق صديقة

خلقت لأجل الأدب، حيث يكون أكون، ذواق لأجناسه وأنماطه، ما فرقت بين اصابعه يوما كلها طويلة متساوية، الا ما كان من موطنه ونشأته، والحق يقال أن حبي الكبير لكتاباتي، جعل أداب الاخر تنزل منزلة صغيرة مقارنة بين ما ألفه أبناء جلدتي. سخي في كل شيء، إلا في الكتابة فالبخل والبغضاء وتمجيد الذات، صفات أحفظها في هذا المجال فقط.

تربطني بالكتابة صداقة عفيفة لمدة طويلة ،تعرف بي وأعرف بها ، كنت كلما شحذت قلمي لأحدث الدنيا عن أهاتي وما يجيش في خاطري من غبطة وسرور، وما يقسو على نفسي من ألم واحزان. أحفظ لها مزايا ومحاسن ومساوئ ، فتريدني متنزها عن الحزن لو وجدتني لا أكتب الا عن الدلال والامل ، لكن يصارعها في ذلك تعبي وشقائي وكبدي ،ليست مضبوطة المواعيد قد تزورني ليلا وتودعني لتعود فجرا ألفتها وهكذا بنينا الألفة والألاف حالي، حال المتنبي، عندما يتحدث عن الحمى لكن عافاني الله ليست أبدا كالحمى.

هذه العبثية المدللة جعلت حياتي ذات قيمة، فهي بمثل النفس الاخر أو شريانا يغذي قلبي دم الامل تغدقني بالكلمات والمعاني والصور والاحاسيس وقد تبخل عني احيانا أخرى.

أترك الخل والخليل وامد اليد واليدان ملتهبتان بلفيح الشوق ، وقد زادت أيامي جمالا بها وترصعت الساعات بزي البهجة ، حتى بات فراقها من المستحيلات ومرت الايام تطوي صفحاتها كما يطوي الريح العنيف صفحات المجلد الكبير ، وحام المرض حول الجسد المعلول الذي انهكته حروب الهموم تلدغه من كل جهة ، وانقض عليه انقضاضا أوقعه الارض ، فلم يترك له عضلا يتحرك حتى الرموش جمدت ،بحثت عنها

اشتكيها حالي فما وجدتها ، ما زارتني كعادتها أسفا غابت في أحلك الظروف، كانت ملاحم المنايا تدنو برمحها ، تزرع اشواك الرعب ثم تعود ادراجها فبذور الشوك تتطاير مع ريح الامل، والتفاؤل الذي لا يتركها تسكن ارض الجسد. كانت عاصفة صعبة، لولا مشيئة القدر وأمر الواحد، الشافي خالق الكون، الذي جعل المرض يجمع اهدابه، غاضبا يشتكي لوعة الفراق ،ويرسل تباشير الوداع والصلح معا فلم يقبل منه شيء

أسأت وأتعبت ونكلت فكان الوداع رحمة، إذهب دون عودة.

عادت المياه إلى مجاريها، وأضحى الهواء يدفع سفوح الأنف المتكبر المتغطرس، فيحرك القلب ليعد الثواني والدقائق ،تذكرت الأهل والأحباب وزيارات المستشفى والمنزل ودعوات الشفاء، وتبسيطهم وتصغيرهم الأسقام فهي عادة جميلة ، تجعلك تقوى على مجابهة الخصم، وسط حلبة الحياة.

لو أنها زارتني والكل عاداني ما أيست قط.

متى تعودين يا عبثية ؟

في "سانتا كروز (وهران)"

فوق هذه السفوح العالية الشاهقة الشامخة ،تتربع قصور، تروي حكاية عصور ،أمم كانت هنا ، وشعوب مرت من هنا،فأتى عليها هاذم اللذات ومفرق الجماعات، فلم تبق إلا الأطلال قائمة ، شاهدة عن لمسات وإبداع معماري بزخرفته الهندسية التي تقدم تعريفا وتأكيدا على تلك الدولة وطبيعة عيشها ومساكنها ، دولة إستعمرت ، تجبرت ، وطغت على دولة عربية ، هدفها الطمع في الخيرات والكره للمعتقد ومعتنقيه.

همس إلى مسامعي صديقي الشاعر، هل تعلم أن الاسبان هم من بنى "سانتا كروز "،وهل تعلم كيف أوصلو الماء إلى هذا القم العالي ؟.....ذهب تفكيري الى أن الاندلسي سينعش ذاتي بطريقة علمية ،ابتكرها قدماء الاسبان لتوصيل الماء الى الجبال ،فقاطعني قائلا: (هم العرب تحت وطء السوط ، وصوت التعذيب، أوصلو كل شيء الى هنا ....كم كان قاس، عاص ،صعب ،متعب ...رحم الله كل من حارب ليصنع البصمات.....).

(تخيل معي ...كان هناك طباخ إسباني هنا ، بل هذا مطبخه...إبق معي تخيل فقط ... وكانت المؤونة وما الى ذلك تأتي في الباخرة من اسبانيا ، لا ليس هكذا أريدك أن تتخيل مثل قصص الجدة، كنا صغار نتماشى معى قصتها، ونتخيل فمذا عنك تخيل مع جدتي، وأنا أتخيل معك ، المكان موجود ، فقد إبني أشخاصك وحدك .جيد أين تركنا الكلام ؟)

(تركناه عند...)

(عرف الطباخ ببراعته التامه، وجمعه بين وظائف مختلفة ، عاش هنا في هذا الحصن ، وأبدعت أنامله أكلات شهية ، لم تكن طبعا من نصيب العرب،ولما تغيرت الأحوال ، وحوصر الاسبان من طرف الباي العثماني، بدأت هواجس الموت ،والجوع تحوم حول الإسبان المتمركزين في هذا الحصن ،خصوصا مع نفاذ مخزون الطعام ، إذ لم يبق إلا كيس حمص في هذا المخزن الطويل العريض، الذي أنهك كاهله الحصار العثماني، هذا الكيس ، كان أمل الفئران، والديدان المعششة، من جهة وأمل البشر المتمسكين بهذا الحصن من جهة أخرى، في الأخير بدأت أظافر الجوع، تحوم حول الجمع بأجمعه، يبحثون عن نجدة بطونهم، ونجدة أنفسهم.

خاطب الطباخ الاسباني الجميع:(سأعد لكم أكلة بسيطة ، لكن لا تسألوني ما هي؟)

وهم إلى كيس الحمص الوحيد ،يحاول أن يطبق ما فكر فيه ، وما واعد به، فقام بطحنه، وسحقه، وفرمه، جيدا،وأضاف إليه الماء ووضعه في الفرن ، لا أضنه كان يدري نتيجة إختراعه ، حتى تذوقها رفقة الجميع ، وابدوا الشهية والإعجاب بها، لقد أعد اكلة شعبية ظلت لعقود طويلة رفيقة المسكين ،والجائع ،إنها ما يسمى عندنا اليوم (الكرانتيكا).....

الازمة تلد الهمة والاشياء الجميلة تولد من رحم الظروف الحالكة.....

هذه فقط رواية من الرويات الكثيرة ،التي تقدم وثيقة ميلاد ، أونسب لهذه الأكلة الشعبية، المنتشرة في بلادنا، لاتحسبها علي أنا فقط أروي لك بطريقة تجعلك تتخيل.

عطسة الكمد في إمارة كورونا

(ولما رأيت طوابير "الزلابية " محتدمة ،تخيلت جلسة بعد اللإفطار ، شايا دونها، فما بقى منها إلا القليل وسيقضي عليها هؤلاء المتدافعون، أمام المحل ،لأعود خالي الوفاض،طبعا لا ، سأدلي بدلوي ، لأطرق فكرة أمتلك مفاتيحها من قبل ، عطست عطسة شقت بها الأذان، فالكل فر ، والكل في القاع غاص...لم يبق إلا أنا والبائع يرمقني بخوفه الشديد، يسلمني كيس الزلابية بعصى طويلة يردد:(أترك الثمن فوق الطاولة،وإن لم يكن معك فهي صدقة مني)

يتبع حديثه بقهقهة وهأهأة ، حول الإنجاز والإختراع العظيم الذي جاء به، أتمأمله هنيهية ، وأردد في في خاطري: يا أمة ضحكت من جهلها الأمم، أقوالك تفوح منها رائحة كريهة، من شدة الاستهانة بالناس.

(أنت لا ترى الأمور إلا من بابك الضيق، خير لك من العطس وترويع الناس، ومرافقة المتدافعين أمام المحلات ، مع من يخشون الجوع ، ولا يخشون المرض، أن تلزم بيتك)

(تا الله، إنك معهم من المصدقين بخطر المرض، وستموت بخوفك مثلهم) .

(مذا تقصد؟).

(المرض ليس بالخطير ، حدثني جدي عن وباء الطاعون، قائلا: لم نغادر المقبرة أسابيع متتالية، نحفر وندفن).

(إسمع تشرفت بصداقتك الطويلة ، فالوقاية خير من العلاج ، ونحن في زمن الحيطة والحذر ، ليست دعوى صريحة إلى خصامك، لكن سأقطع مجالسي معك ، كإجراء إحترازي).

(هههه، تتحدث مثل السلطات، لما كل هذا الرعب ؟، لكن تذكر، أنت من طلب ذلك).

كان ذلك منذ شهر، وكانت هذه الكلمات أخر ما سقط في أذني ، وتمعنت فيها ، من صوته الخشن المبحوح، لم أقطع صداقتي به، فمكارمه تشفع له عند مكارمي، ولأنافته سوف لن يعود ، حتى أتنازل أنا وأراجع ما قلته ، نحن ألفناهذا البروتوكول، فهل سأعود لترتيب عملية التنازل ، وكيف ذلك ، فما إن طرقت باب بيتي ، حتى صاحت زوجتي قاب بضع أمتار،أو أبعد، تضع الكمامة وتمسك أبنائها :

(إبق بعيدا أرجوك).

(هل جننت يا امرأة).

(خليلك الوفي، اقتيد بالقوة إلى الحجر ، بعد أن حاصره المرض ، الكل يقول أنه مصاب بكرونا، إذن الوباء موجود عندنا في المنزل، لقد جمعت أغراضي ، سأخذ أولادي إلى بيتنا).

حامت حولي الدهشة والغضب، بعد أن تأملتها مذعورة ، وقد نقلت الخوف إلى أبنائي، يمسكون فيها بشدة ، بعد أن كانوا يسارعون إلى الباب من أول طرقة أطرقها.

(إسمعي إن خرجت من هذا الباب ، لن تعودي لتدخلي منه أبدا، صديقي الذي تتحدثين عنه لم أصادفه منذ شهر تقريبا).

خبأت رغبتها في المغادرة ، بعد تهديدي لها، لكن أعرفها ليست واعية ولا تستريح لكلامي، سأعيش معها سحاب الوجس والرهبة ، سأضطر للعودة إلى الشارع لأخفف من غضبي ، وأستثمر ساعات ما قبل الحجر المنزلي في المشي، وجدت صاحب مقهى الحي ، يجلس أمامها يتحسر على الأيام الجميلة التي مرت ، يجمع فيها المال دون توقف، يندب بابها الموصد لأكثر من شهرين، إنه يكن حقدا دفينا لكورونا، لن أقاطع رثائه لمحبوبته ، لكن لمحني من بعيد:

(ابراهيم ، ابراهيم ، أقبل).

أتوجه نحوه ، مكرها.

(قف هناك ، متر للأمان كما يقولون هههه...).

(مادام في الأمر متر ومسافة ، لمذا ناديتني).

(سمعت أن صديقك ، في الحجر ، بقي دورك الأن هههههه)

(مجتمع مجنون، إنك رجل مخبول أتركني في حالي أرجوك).

أمشي خطوات ، بقايا حرب كورونا موجودة في عقول الناس ، إنها تشبه أطلال ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

ينادي علي جاري أخر من ورائي:

(ابراهيم ، توقف أحتاجك)

يارب أين المفر لا بيت ألجا إليه ، ولا شارع أحتمي به ، أظنني متابع أو فار من العدالة ، ما هذا اليوم...

لايسلم ، يمشي على نحو خطواتي ، مع فسحة صغيرة بيني وبينه، لا يعرف من أين يبدأ ،الأوبئة الإجتماعية أخطر من الأوبئة الأخرى، هناك وجل وارتياع، كأن المدينة ستقصف بالمدافع ، سأخفف عنه الأمر.

(تاسفت كثيرا ، بعدما سمعت خبر صديقي علي).

(نعم سمعنا بذلك ، فأثناء عملية التقصي الوبائي، ذكر صاحب المحل الذي أصيب بكورونا قبل أيام ، أن صديقك بدت عليه علامات المرض في محله ، بل عطس أكثر من عطسة أمامه، وبسببه وصل المرض إلى حارتنا، سألزم بيتي).

يمشي معي يحصد أمتار الذعر والخوف، يتقاسمها معي لكنها قسمة لم تطل ، فقد وصل إلى بيته ، وسيستنجد بمخدعه، يفارقني دون وداع ،كما بدأ دون سلام، وأفهم

ذلك فاعذره وأواصل مسيري، هناك تشويش وإزعاج يطالني، سأعود إلى منزلي كما يفعل الكل، أدخل على غرفتي ، وأغلق على نفسي،لأستلقي على فراشي، لا أكلمها من أول وهلة إستسلمت وحاولت هجري، الحمد لله على القوة والصحة والعافية ، لكن مابال الشيخوخة ، سوف لن تأزرني، ولن تكون حصنا علي إذا تقدم بي العمر، تاملات مستقبلية سريرية، يقطعها سؤال يبرق في مخيلتي.

(لما لا أتصل به ، لأسأل عن حواله؟)

سارعت إلى الإتصال به فرد وكأنه كان ينتظر مكالمتي:

(هذا الغبي صاحب المحل ، ربما مزح معهم فصدقوه، في بلادنا يؤتمن الأعمى والأطرش ،الحقيقة أنه في هذا التوقيت من كل سنة تصيبني أفلوانزا بسيطة، لكن سرعان ماتختفي، صديقك مبتلى بنوع من أنواع الحساسية منذ نعومة أظافره ، لحسن الحظ مصائب قوم عند قوم فوائد، هنا في الحجر كل شيء متوفر الطيبات من الأكل ، الأنترنيت المجانية ...لقد خدمني خمسة عشر يوم دون أن يشعر، لو علمت الأمر هكذا ، لطرقت هذه العطلة منذ زمان).

(أنت ، أنت، لن تتغير أبدا ، أدعو الله أن يخفف كربك وسنبقى على إتصال).

أظنه قد جعل الجرأة عطرا، وامتشق سيف الصبر ليتغلب به على أشجانه، لم يعد لي أي نفس في تذكر حديثي معه،وكم أحمد الله على اللحظة ، والجراة التي ألهمتني لأطلب منه مقاطعتي مقاطعة سلمية .

كانت الأيام الأولى صعبة، بل أكثر من كابوس، حين يرمقني الجيران بنظرات الإتهام، صرت كمن يحمل العدوى ويحاول نقلها للأخرين ،لو كان الأمر بيدهم، ما وضعت قدما في هذه الحارة الملعونة، لأجلهم تبضعت أبعد من منزلي لكي لا يعرفني الباعة ، حتى مع نفسي حاربت كل عطسة ، وقلقت من كل نزلة برد، خصوصا مع أنباء

عن وجود والده في الإنعاش، وزوجته وصغاره في الحجر، سيعيش الإنسان حياته القليلة بكل أحاسيسه ، إلا هذا الإحساس ، قاس ومر بنكهة الألم والملل، حتى الشوارع تسود في وجهك،وتغيب عنك مجبرة تلك العاطفة الأسرية، لكن في وسط هذه الهواجس بصيص نوريلوح من بعيد، إذ عمر هلع الوباء ، لايدوم إلا خمس عشر يوما بعد الإحتكاك بالمصاب، مع علمي ببرائتي من المرض المنسوب إلي، لكن وا كرباه فبصيص نوري أفل قبل أن يظهر سناه إلى العلن ، فصديقي توفي فجأة ، ولم أعلم له جنازة ، ولا طريقة دفن ، وأنا الأولى بتعزية الناس، لأني كنت له أكثر من خليل.

كبر الجرو

أصدقاء فقط في لعبة "الدومينو" ، أوبصريح العبارة في القمار، فإذا كلل الأمر بالفوز، أبانت المحبة صدرها ، أما إذا كانت هناك خسارة ، فإن الشتائم لا تنتهي محملا كل واحد منهما الوهن للأخر، و افترقا بعد ملاسنة ضروس ، يخفف كل منهما أوزار حربه النفسية في بيته، حتى إذا جاء الصباح بحثا عن بعضهما البعض ، و بدآ مباراة جديدة في "الدومينو" وكأن شيئا لم يحدث متعهدين بالإنتقام لخسارة يوم الأمس.

يكنى الأول " بوحسون" ويسمى الثاني "عباس" ، يمتهن الأول تجارة مربحة ،يسير أمورها أبنائه بينما الثاني يمتهن الفلاحة ، ويعيش في البادية تاركا زمام الأمور هو الأخر لأبنائه، منشغلا بهذه اللعبة الشيطانية، تنطلق هذه المبارات ، يلفها دخان السجائر،وغوغاء المتفرجين.

إنطلاقة، مفرحة يسودها التوافق ،لكن سرعان ما تؤجج مسارها الخسارة ،مع تواليها ، والإحساس بالضغوطات ، مع صياح المتفرجين ، يضرب عباس الطاولة ، وينسحب محمر العينين، والوجنتين، ليفرغ غضبه في بيته ، لكن هذه المرة سيجد ضيوفا في منزله مع هدية متواضعة ، يقطعون عليه إفراغ تلك الشحنات الزائدة ،هم ابناء أخته مع جرو جميل من أجمل الفصائل .

قضوا معه بقية اليوم وانسحبوا تاركين، الهدية للخال، يتأمله يلعب بذيله ، مبديا فرحه بالموطن الجديد ،ثم يقول في خاطره، سأختارله اسم "بوحسون" ، ثم يناديه تعالى "بوحسون" ، فيهرول الجرو نحوه بحماس كبير، يقهقه عيسى بأعلى صوته ، ويحس أنه إنتقم لذاته .

يكبر الجرو "بوحسون"، بطباع قاسية وشرسة ، لايدع أحدا يقترب من المنزل ،فإذا أعجب عباس به أبدى فرحه ،وإذا اغتاض منه قال له : (لعنك الله ولعن إسمك).

تدخل كورونا على الوجود بقساوتها،وتوقف حال التجار، والأغنياء ،صار الكل سواسية في مملكة هذا الوباء، وكان أصعب شيء هو توديع اللعبة المعشوقة "الدومينو" لأحبابها الذين يستنجدون بها لكسر الملل،ورويدا رويدا ستنسى ، لكن بمشقة كبيرة ،لأن الحجرالصحي له قوانينه وأوامره ، التي تمنع أي تجمع، وسيبحث الكل عن التمرد ضد هذه الأخيرة التي حرمتهم،مذاق الإلتقاء والإستمتاع بالمجالس، لكن هذا التمرد سيكون بطريقة أخرى ، سيهجر الإنسان المدينة التي كبلتها قيود الحجرالصحي ، وسيطرق أبواب الطبيعة أو البادية التي تخلومن تطبيق القوانين الصارمة.

(أبو حسون) الذي توقف حاله،ونخر الكساد تجارته ، لم يعهدالبقاء في المنزل أبدا،فهو يؤمن أن المكوث به من طباع النسوة ، و مع كل هذه الاجراءات ، يخرج سيارته صباحا ، ويتوجه إلى أخر البلدة ، حيث يبقى بداخلها حتى إذا حان وقت الغذاء ،سيحاصره السخط والملل والذعر لكن لامفر من الأمر.

بعد صلاة العشاء يسأله إبنه :

(هل تحتاج السيارة غدا).

(نعم ، لكن لماذا؟)

(أكياس الحليب ، أصبحت قليلة ،وقيل لي :أن صديقك عباس يبيع حليب البقر).

(عباس لقد نسيته تماما ، إذن غدا سنزوره).

يقول في باله:

(عباس يبيع حليب البقر ، هو أيضا من فصيلة البقر ،لكن لمذا لم أتذكره ، على الأقل سأستنجد به في الأوقات العصيبة ، لكنه أحمق بسببه ذقت طعم الخسارة أكثر من مرة، سأتنازل لمرة في حياتي عن هذا الغرور ، وسأزور صديقي ومن يدري قد أ جده يلعب لعبتنا هناك).

تبلج الصبح ، وتلاه الضحى ،شرب القهوة على إيقاع الهدوء ، ودون أي غضب لأنه يعرف أين سيقضي يومه ،ها هو ذا حفيده يخبره بان إبنه ينتظره في الخارج، سيترك السياقة له ليتمتع بمناظر البادية الخلابة، وكلما إقترب يقول في خاطره :(خدعني عباس)، حتى قاطعه إبنه (وصلنا ، لكن صديقك ضرب سياجا طويلا على مزرعته حتى لا يقترب أي أحد ، ابق في السيارة سأناديه).

قبل أن يهم بمغادرة السيارة ، هاجمهم الكلب "بوحسون"،مما جعله يعود إلى السيارة ليحتمي بها ،بينما ينبح الكلب نباحا مخيفا ويقفز على زجاج السيارة ويحاول الدخول لولا أن الابن أغلق باب السيارة بسرعة ، وفي هذه الأثناء يركب مقدمة السيارة،و يقابلهم بالنباح القوي ويكشر عن انيابه ليسيل لعابه ويحاول كسر الزجاج، وكلما حاول "بوحسون" نهره الا وزاد في نبرة عدائه ، يصيح فيها قائلا : (عباس الغبي أين وجد هذا النوع من الكلاب).

يهرول "عباس"من بعيد صائحا :(بوحسون تعالى هنا،....إبتعد بو حسون) ، و ينادي عليه، يتبادر إلى مسامع صاحبنا تردد إسمه على لسان صاحبه ، فيظن أنه قد عرفه ،من خلال السيارة لكن حين وصوله إليهم ، يرفض الكلب الانصياع إلى أوامره ، يحمل صاحبه حجارة ويردد:(إبتعد أبو حسون وإلا كسرت، رأسك) فيخرج صاحبه

من السيارة ، فيحاول عباس إخفاء الأمر من خلال الترحيب لكن يصيح في وجهه :(أيها الأحمق أتسمي كلبك بإسمي).

ويلتفت ناحية إبنه ليكبت ضحكته فهو يعلم أنهما مثل الأطفال ، يتخاصمون صباحا ويتسامحون مساءا ، بينما لم يجد عباس أي شيء لإصلاح الموقف غير قوله :

(أيها الأحمق هل تعلم ،أن الصديق الوفي هو الكلب ، ولما افتقدتك في كورونا ، سميت الكلب بإسمك ،وكنت أعلم أنك ستلومني لأنك لا تعلم معنى الوفاء).

يرد أبو حسون :

(أنت أيها الأحمق هل تعلم ان الصديق الوفي هو الكلب ، وأنت صديقي الوفي لما افتقدتك في كورونا ، سميت الكلب باسمك، وكنت أعلم أنك ستلومني لأنك لا تعلم معنى الوفاء).

(أنت أيها الغبي ، الذي لا يعلم معنى الوفاء ، ما دمت ، تتمتع بهذا النعيم ،لما لم تتذكر صاحبك).

يرد :

(من محاسن الصدف أنت ، هنا ستبقى عندي).

لماذا ؟:

(سنلعب الدومينو لصديقين بعد قريب).

(أين تلعب؟ ، هنا لا يوجد إلا الحيوانات).

(تعال سأوريك الطاولة).

يرافقه ليريه المكان ن وينشرح قلب "أبو حسون" انشراحا ، يطرد به أهات كورونا وما طبقته من ملل وروتين ، و بدآ يتجولان في المزرعة ، ينتظران خصومهما ،بينما

ينصرف الإبن بحليبه دونما توديعهما ، لأنه يعلم أنه سيعود مساءا ، ليعيد والده إلى المنزل بحجة أنهما قد تخاصما مجددا ، لكن بين الخصام والصلح سيجني الكثير من الحليب.

نبذة عن المؤلف

محمد حلفاوي

- الجزائر

ماستر لغة و أدب عربي

سنة 02 لغة فرنسية

شهادة الدراسات التطبيقية الجامعية اعلام الي للتسيير

شهادة التأهيل المهني مسير فندق.

كتب تحت الطبع::

واعظ في أحضان الشراهة_ مجموعة شعرية

رفوف من سيرة حائر مجموعة قصصية

المشاركات في الملتقيات:

المشاركة في ملتقيات أدبية محلية ووطنية منها (الملتقى الوطني شموع لا تنطفئ)

ملتقيات وطنية.

تكريمات من مجلات مختلفة.

الجوائز:

درع ملتقى ابن النيل الأدبي الجائزة الثانية في الشعر الكتابة في زمن الحجر ، الجائزة الثالثة رسولنا قدوتنا.

أعمال سابقة:

- لا توجد

الفهرست

مقدمة: ٥
أبناء عبد المال ٧
عصبية ١٣
أعشاش العصافير ١٧
صاحب الحمار ٢١
أهازيج الربيع ٢٦
شهيد فوق حسنات المجهول ٣٠
رفقا ٣٣
عصامي ٣٦
فارس موقعة الحلاقة ٤٠
كانت ممثلة ٤٣
لا رجوع ٤٦
رجوع ٥٢
باعنا عنبنا ٥٨
نسبة الغياب صفر ٦١

سوسو ٦٦
أشواق صديقة ٧٨
في "سانتا كروز (وهران)"..... ٨٠
عطسة الكمد في إمارة كورونا ٨٢
كبر الجرو ٨٧
نبذة عن المؤلف..... ٩١
الفهرست..... ٩٤